النزعة الذاتية

في

الشعر الجاهلي

إعـداد

د. حنفي محمود مصطفى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان للطابع القبلى الغالب علي الشعر الجاهلى، وتفاعل بعض الشعراء مع قبائلهم ،ورضاهم وقناعتهم بتصوير أحوال القبيلة في سلمها وحربها أثره في قول بعض الأدباء المحدثين ، إن الشعر الجاهلي اختفت منه النزعة الذاتية ، وحلت محلها النزعة القبلية ، وقد دفعني هذا الرأي وغيره، إلى استقراء بعض القصائد ، والمقطعات الشعرية الواردة بدواوين بعض الشعراء الجاهليين، ومصادر شعرهم ، حتي أتمكن من الوقوف علي صحة هذه الآراء، أو عدم صحتها.

ولإثبات هذا بدأت حديثى - في هذا البحث- بمفهوم النزعة الذاتية عندي، ثم تناولت في حديث موجز المجتمع القبلى ، وعلاقة الشاعر الجاهلي بهذا المجتمع ، والأسباب التي جعلته لا يألوا جهدا فى تسخير موهبته الفنية من أجل الدفاع عن قبيلته ، وتسجيل مفاخرها.

ولكى أثبت في هذا البحث أن الطابع القبلى لم يكن حائلا بين ظهور النزعة الذاتية في الشعر الجاهلي، فقد تناولت آراء بعض الأدباء والنقاد المعاصرين في ذاتية الشاعر الجاهلى، وعقب مناقشتي لهذه الآراء، تحدثت عن الذاتية فى مقدمة القصيدة سواء أكانت طللية ، أم غزلية أم خمرية.

ثم ضمنت هذا البحث أيضا النزعة الذاتية في شعر بعض الشعراء الجاهليين ، كامرئ القيس ، وعنترة ،وطرفة بن العبد وغيرهم ، وكذلك

النزعة الذاتية في شعر بعض الشعراء الصعاليك كالشنفرى الأزدى ، وعروة بن الورد، و الأعلم الهذلى ، وغيرهم ، وأيضا ذاتية بعض شعراء الممالك العربية كالنابغة الذبياني، وعدي بن زيد، ثم تناولت الذاتية الموضوعية في شعر حاتم الطائىّ الذى اتخذ ذاته محوراً تدور حوله فضيلة الكرم ، ثم أتيت- علي سبيل الاستشهاد- ببعض النماذج الشعرية الصادرة عن هؤلاء الشعراء الذين شغلوا أنفسهم بالتعبير عن ذواتهم ، فكان لكل هذا أثر واضح في تأييد صحة ما ذهبت إليه ، وتحقيق الغرض المنشود من هذا البحث.

ثم تناولت - من واقع النماذج الشعرية الواردة بهذا البحث- بعض السمات الفنية لشعر النزعة الذاتية ، وذلك من حيث الألفاظ والمعانى، ومن حيث الأساليب ، ومن حيث الموسيقى الشعرية ، ومن حيث الخيال والتصوير الفني، ثم ختمت البحث ببعض النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث المتواضع.

أسأل الله جل علمه التوفيق والسداد

د.حنفي محمود مصطفى

المقصود بالنزعة الذاتية

قال ابن منظور فى مادة (نزع) :« نازعتني نفسي إلي هواها نزاعا غالبتني، ونزع الإنسان إلى أهله ، والبعير إلي وطنه ينزع نزاعاً، ونزوعاً، حن واشتاق، ورأيت فلانا مُتنزِّعاً إلي كذا: أي متسرعا نازعا إليه»(١).

وقال الفيروزآبادى :« النزُوع الذى يحن إلي وطنه ، ويشتاق ، ويقال نازعته نفسه إلي الشئ ، أى دعته إليه»(٢).

أما عن الذاتية« فقد قيل: ذات الشئ حقيقته ، وخاصته يقال عيب ذاتي، جبلىٌّ، وخِلْقِى، والنفس، والشخص ، ويقال في الأدب: نقد ذاتي ، نقد يرجع إلى آراء الشخص وانفعالاته ، ويقال : فلان بذاته وعينه»(٣).

ويري بعض الأدباء، والنقاد المحدثين : أن الشعر الذاتى هو الذى يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس، سواء حين يتحمس الشاعر، و يفتخر، وحين يمدح، و يهجو، أو حين يتغزل أو يرثى، أو حين يعتذر، و يعاتب ، أو حين يصف أي شئ مما ينبث حوله في جزيرته»(٤).

كما قيل أيضا:« إن الأدب الذاتى هو الذى يعبر فيه الأديب عن خواطره ومشاعره ، وآرائه وأحاسيسه، وتأملاته ، فالشعر الغنائى من

(١) لسان العرب لابن منظور مادة «نزع».
(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادى مادة «نزع».
(٣) المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية ص٢٤٢، مطبعة شركة الإعلانات الشرقية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
(٤) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، د/ شوقي ضيف ص١٩٠ ، مطبعة دار المعارف.

الأدب الذاتي، لأن الشاعر يتغنى فيه بعواطه الذاتية، وخوالجه النفسية، وآماله»[1].

ويعرف بعض علماء النفس الذاتية بأنها:" مجموعة من الصفات العقلية الخاصة بالفرد وتمتاز بالصراحة التي يراد بها إظهار ما في النفس بغير التواء، أو اعوجاج بحيث تكون أفكار الإنسان ظاهرة، وأقواله واضحة»[2].

من هذا كله يتضح لنا أن حنين الإنسان إلي نفسه ، واشتياقه إلى التعبير عما يكمن بداخلها من مشاعر، وأحاسيس يعد نزوعا ،كما يصح لنا أن نسم مشاعره بالذاتية، لأنها خاصة بذاته،و بشخصه ، ومن هنا جاء قول بعض الأدباء:« بأن الشعر الذى يعبر عن عواطف الفرد، ويصور نفسيته ، ويفصح عن خواطره، وآرائه، وآماله، وغير ذلك من أحاسيسة الفردية يعد شعراً ذاتيا». وهذا ما نعنيه بالنزعة الذاتية سواء أكانت هذه الذاتية شخصية معبرة عما يجيش به الصدر من مشاعر فردية خاصة ،أم ذاتية موضوعية معبرة عن المواقف الذاتية لبعض الشعراء تجاه قضايا مجتمعهم القبلى، كقضية الكرم والسخاء والبذل، وكالعفة والوفاء، وكحماية الجار وغير ذلك من المواقف والأحداث التي تشعرنا بتناغم الحس الفردى مع المطالب المتأصلة في المجتمع القبلى.

---

(١) الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام.د/ حسن جاد، ود/ محمد عبد المنعم خفاجي ص٢٢ ، المطبعة الفاروقية ١٣٧٠هـ- ١٩٥١م.

(٢) في علم النفس .د/ حامد عبد القادر ٢/ ٤١١، المطبعة المصرية.

العقد الاجتماعي بين الشاعر وقبيلته:

القبيلة هي عماد الحياة في العصر الجاهلى، وملاذ أبنائها ، وملجأهم في الدفاع عن أنفسهم ، وأموالهم ، وكل ما يعتريهم من متاعب وشدائد في ظل ظروف حياتهم القاسية ،ومن ثم ، فقد «كان أبناء القبيلة يؤمنون بوحدتها، ويتعصبون لها ،ويتضامنون فيما بينهم فيما يجنيه أحدهم كما يقول المثل العربى:« في الجزيرة تشترك العشيرة»[1] ويعملون بالمبدأ القائل:«انصر أخاك ظالما أو مظلوما»[2].

ومن هنا أصبح النظام القبلى بين الأفراد الذين تربطهم وشائج النسب، والقرابة ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية التي لا غني عنها في عصر «اشتعلت فيه جذوة العصبية القبلية ، و التناجر الدائم بين قبيله وأخري لأقل الأسباب، كما كان للتفاخر بالأنساب ، والتباهي بالأحساب دور كبير في إشعال نار تلك الحروب»[3].

وكما كانت القبيلة تلزم الفرد بالانتماء إليها ، والخضوع لقوانينها كانت هي بكل ما تملك تهب لحمايته ونجدته ،والوقوف بجانبه إذا أصابه ضيم ،أو مسه أذى، فتنتج عن هذا النفع المتبادل بين الفرد وقبيلته ماهو معروف ضمنا بالعقد الاجتماعي، هذا العقد ربط بين القبيلة ، وأبنائها،

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ٢/ ٤٤٣، مطبعة دار الجيل، بيروت.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٣٧٣.

(٣) الأداب العربى في العصر الجاهلي وصدر الإسلام للدكتور / زكريا صيام ص٧، مطبعة دار النصر للطباعة.

وبعث فيهم روح العصبية القبلية التى عبر عنها دريد بن الصمة في قوله[1]:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ∴ غويت وإن ترشد غزية أرشد

فهو يعد نفسه جزءا لا يتجزأ من قبيلته ، ولا يتردد في الاستجابة لندائها سواء أكانت علي صواب أم خطأ ، وهي أيضا تستجيب له ولغيره بمثل استجابته لها حين يدعوها في النائبات كما قال قريط بن أنيف[2].

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ∴ فى النائبات علي ما قال برهانا

وهكذا نجد الشاعر الجاهلي يؤمن بما آمن به أفراد جماعته من عادات وتقاليد، ومثل اجتماعية يسخر لها موهبته ألفنية لنشرها ، وذيوعها، والدفاع عنها ، فيكون بهذا محققا آمال قبيلته التى حظيت بظهوره ونبوغه وتألق شاعريته وأتتها القبائل فهنأتها ،وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال،والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم»[3].

وبهذا الصنيع صار الشاعر فى قبيلته مشاركا لفارسها في شرف الدفاع عنها وحمايتها ممن أراد النيل منها حتي أصبحت«وظيفته فى

(١) الأغاني للأصفهانى شرح الأستاذ/ عبد علي مهنا ١٠/ ١١، مطبعة دار الكتب العلمية ببيروت.
(٢) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ١/ ٩ ، مطبعة بيروت.
(٣) العمدة لابن رشيق تحقيق محى الدين عبد الحميد ١/ ٦٥، مطبعةدار الرشاد الحديثة.

القبيلة أخطر وظائف الزعامة، والقيادة ، وهو وضع قد تمخضت به ظروف البيئة ، ودفعت إليه حاجة القبيلة إلي قيادة معنوية تبث في أبنائها روح البسالة والحمية وإباء الضيم»[1].

وتأكيدا لهذه الزعامة ، فقد أخبرتنا بعض المصادر الأدبية» أن عبيد بن الأبرص بعد أن بغي علي قومه« بنى أسد» الملك«حجر بن عمرو الكندى» وأذلهم وقتلهم بالعصى ،وأسر منهم طائفة ، وإذ يأبي «عبيد» علي نفسه ،وأهله، وعشيرته الذل، والخضوع ، فأوقد جذوة الحماس في قومه حتي ثاروا علي الملك، وقتلوه ، ثم وقفوا في وجه ابنه امرئ القيس يتقدمهم شاعرهم ليحميهم من التأثر بوعيده، وتهديده بهذه الشحنة الشعرية المليئة بالسخرية ، والاستهزاء المتمثل في قوله [2]:

يا ذا المخوفنا بقتـــــل أبيه إذلالا وحينا[3]
أزعمت أنك قد قتلـــت سراتنا كذبا ومينا
هلا علي حجر بن أ م قطام تبكي لا علينا
إنا إذا عض الشقا ف برأس صعدتنا لوينا[4]
نحمي حقيقتنا وبعـ ـض القوم يسقط بين بينا
هلا سألت جموع كنـ ـدة يوم ولوا: أين أينا؟
أيام نضرب هامهم ببواتر حتي انحنينا

(١) قيم جديدة للأدب العربي للدكتورة بنت الشاطئ ص ١٢٤، مطبعة دار المعرفة.
(٢) ديوان عبيد بن الأبرص، ص١٤١ ، مطبعة دار صادر بيروت.
(٣) الكذب والمين : معناها واحد.
(٤) الثقاف: آلة تقوم بها الرماح ، الصعدة: الرمح ، لوينا : لعله من لوي فلانا بحقه جحده إياه ، يسقط بين بين : أى يتساقط ضعيفا لا يعتد به.

ويحقق الحارث بن حلزة آمال البكريين فى قصيدته التي أنشدها بين يدى ملك الحيرة «عمرو بن هند» بسبب مطالبة التغلبيين للبكيريين بديات أبنائهم الذين هلكوا بالسموم في بعض مسيرهم للغزو مع ملك الحيرة، فتأججت عاطفة الشاعر القبلية، وراح يدافع عن البكريين، ويفند مزاعم خصومهم التغلبيين بهذه القصيدة التي قال فيها[1]:

وأتانا عن الأراقم أنبا ... ء وخطب نعني به ونساء[2]
أن إخواننا الأراقم بغلو ... ن علينا في قولهم إحفاء
يخلطون البريء منا بذى الذنـ ... ـب ولا ينفع الخلى الخلاء
زعموا أن كل من ضرب العيـ ... ـر موال لنا وأنا الولاء
أجمعوا أمرهم بليل فلما ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيل خلال ذاك رغاء

وترتفع حدة الصوت الجماعي فى معلقة شاعر تغلب «عمرو بن كلثوم» التي قيل في سبب إنشادها إن ملك الحيرة أراد إذلاله، فأوعز إلي

(١) ديوان الحارث بن حلزة: إعداد/ طلال حرب ص ٣٩ مطبعة دار صادر بيروت، وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الانبارى، تحقيق عبدالسلام هارون ص٤٣٣، مطبعة دار المعارف ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠.
والقصية مطلعها: آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء

(٢) الأراقم: أحياء من بنى تغلب وسموا بالأراقم لأن امرأة شبهت عيون آبائهم بعيون الأراقم، الأنباء: الأخبار، الخطب: الأمر الجليل، نعني: نهتم بشؤونا ما يأتينا، الغلو: الزيادة، الإحفاء، الإلحاح في المساواة، يخلطون: يشوبون، السير: قيل بمعني الوتد وقيل بمعني السيد وأراد به كليب بن وائل لجلالته وعلو شأنه، أجمعوا: أحكموا، الرغاء: رغاء الخيل والإبل أصواتهما.

والدته أن تدعو أم عمرو لزيارتها، وتتعمد إذلالها لتثير الشاعر ويري ما يري من أمره، وعندما وصل «عمرو بن كلثوم» ومعه أمه «ليلى بنت المهلهل» طلبت «هند» من «بنت المهلهل» أن تناولها طبقا من أطباق الطعام، فثارت ثائرتها، واستنجدت بابنها المقيم مع «عمرو بن هند» فعالجه بسيف معلق فى الرواق، فضربه به، ثم أنشد قصيدته التي افتخر، وتباهى في مقدمتها بقتله للملك، فسمي الساقية «أم عمرو» في قوله: «وما شر الثلاثة أم عمرو» وهذا تلميح منه بأم الملك، ومناصرته للبكريين، ولطلب أمه استخدام ليلى أم الشاعر، ثم أردف هذه الأبيات الخمرية بأبيات الغزل ومنها انتقل إلي الفخر والتهديد بهذه الأبيات التى وجهها إلي الملك عمرو بن هند فقال[1]:

أبا هند فلا تعجل علينا ... وانظرنا نخبرك اليقينا[2]
بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا
وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيد معشر قد توجوه ... بتاج الملك يحمي المحجرينا
تركنا الخيل عاكفة عليه ... مقلدة أعنتها صفونا

(١) ديوان عمرو بن كلثوم ص ٥٦، مطبعة دار صادر، بيروت.، والقصيدة مطلعها:
ألا هبي بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقي خمور الأندرينا

(٢) أبا هند: عمرو بن هند، أنظرنا: انتظرنا، الرايات: الأعلام، نصدرهن: نردهن، قد روينا: من الدم، غر: بيض مشهورة، عصينا الملك: عصينا أن نطيعه، ندين: نخضع ونذل، المحجرين: المحاصرين الضعفاء، عاكفة: من عكف يعكف أي أقام واستمر، صفون: جمع صافن وهو الفرس الذى يقف علي ثلاث قوائم، أثرنا: أقمنا بيوتنا، ذى طلوح والشامات: موضعان، الموعدين: الأعداء، هرت: نبحت بصوت خلف، شد بنا: قطعنا وهذبنا، قتادة شجرة لها شوك، بلينا، قربنا، نهال: قطعة من جلد ينزل عليها الدقيق وقت الطحن، لهوة: كمية الحبوب التى تلقي للطحن.

وأنزلنا البيوت بذى طلوح إلي الشامات تنفى الموعدينا
وقد هرت كلاب الحي منا وشذ بنا قتادة من يلينا
متي ننقل إلى قوم رحانا يكونوا - في اللقاء- لها طحينا
يكون ثفالها شرقي نجد ولهوتها قضاعة أجمعينا

فهذه القصيدة الطويلة التي ارتفع فيها الصوت القبلى، وسيطرت العصبية القبلية علي روح قائلها تعد صورة من أشهر الصور الدالة علي التفاني المطلق لشاعر القبيلة في قومه ،واندماجه التام في جماعته، وهذا ما أفصحت عنه معاني هذه القصيدة التى افتخر فيها شاعرنا بمجد قبيلته «تغلب» وافتخر بأحسابهم وأنسابهم ،وأيامهم وانتصاراتهم وبطولاتهم، وحرصهم الدائم علي الفضائل التي رفع بها قومه فوق الناس أجمعين ، فانحني لهم جميع الناس بصفة عامة، والجبابرة والعتاة بصفة خاصة.

ونظرا لأن الشاعر قال هذه القصيدة علي لسان قومه ،وتحدث بصوتهم ، وعبر عن مشاعرهم فقد أتي بالضمير المناسب لموقف الفخر والتطاول علي خصومه ، فاستخدم الضميرين «نا» و«نحن» فى تسعة وستين بيتا من معلقته ، ليس ذلك فحسب، وإنما كرر الضمير أكثر من مرة في البت الواحد وذلك فى قوله :

ونحن التاركون لما سخطنا ∴ ونحن الآخذون لما رضينا

ومن خلال اتيانه بضمير الجماعة في هذه الأبيات وغيرها، يبدو لنا مدى سيطرة الوجدان القبلى علي الشاعر، الذى أدخل ذاته في الذات

القبلية، واستشعر وجوده الخاص في تفاعله مع الوجود القبلى ، وكأن حرصه علي شرفه ودفاعه عن كرامة أمه يعد حرصا ودفاعا عن شرف قبيلته التى «سادها وهو ابن خمس عشرة سنة ودمج ذاته فيها فكان كرها وفرها»[1] وفي هذا دليل واضح علي علاقته بقبيلته وحرصه الشديد علي تضخيم ذاتها وتوسيع دائرة توهجها وعظمتها.

ومما سبق يتضح لنا أن هذه النماذج الشعرية التي أتينا بها علي سبيل الاستشهاد فحسب تدل دلالة واضحة علي مدى حاجة القبيلة لمثل هؤلاء الشعراء الذين نسوا ذواتهم ، وسخروا مواهبهم وفصاحة ألسنتهم ، من أجل أن يحققوا للقبيلة مزيدا من الشرف والمجد والذكر الحسن بما يبثونه فيها ،ويدعونها إليه من بطولات متجددة ، وواقع تتمني أن يكون.

وقد يخيل للقارئ أن الحديث السابق عن القبيلة وشاعرها يعد من قبيل الاستطراد الذى لا علاقة له بموضوع هذا البحث، ولكنه عند متابعته التالية يدرك أن انشغال بعض الشعراء ا لجاهلين بقضايا قبائلهم، وهمومها لم يكن حائلا عن ظهور النزعة الذاتية والمشاعر الفردية في الشعر الجاهلى.

آراء بعض الأدباء والنقاد المعاصرين في ذاتية الشاعر الجاهلى

عرفنا من خلال النماذج الشعرية التى أتينا بها في أثناء حديثنا عن

(١) ديوانه ، ص٥.

العقد الاجتماعي بين الشاعر ، وقبيلته أن هناك طائفة من الشعراء وظفوا شعرهم للتعبير عن القبيلة والدفاع عنها ، فكانت هذه الأشعار، وأمثالها وراء قول بعض الأدباء والنقاد المعاصرين:« بأن الشاعر الجاهلى أهدر ذاتيته، وصار مجرد بوق لقبيلته علي حد تعبير صاحب كتاب تطور الغزل»[1]، وأن شعراء القبائل: «طبعوا شعرهم بطابع قبلى ميزة من الشعر العربي في سائر عصوره، ومختلف بيئاته، بعد ذلك اختفت منه النزعة الذاتية لتحل محلها النزعة الجماعية وذابت فيه الشخصية الفردية لتظهر بدلا منها الشخصية القبلية، وظهر ضمير الجماعة«نحن» مكان ضمير الفرد "أنا" وأصبحت الألوان التي يرسم بها الشاعر لوحاته الفنية مشتقة من حياة قبيلته ، وليست صادرة عن نفسه ، وأصبحت ريشته التي يلون بها لوحاته ملكا للقبيلة كلها وليست ملكا له وحده»[2].

ومن الأدباء من عد حديث الشاعر عن قبيلته عيبا من العيوب، ونقصا من النقائص التي لحقت بالشعر الجاهلي نلاحظ هذا فى قوله:" والنقص الثاني في الشعر الجاهلي هو أنه شعر جماعة، وليس شعرا شخصيا، فهو يعبر عن عاطفة جماعية. وليس عاطفته هذه، وإن خيل إليه أنها عاطفته الشخصية هي فى حقيقتها عاطفة جماعية محضة، فهى ليست شعوره هو من حيث أنه فرد إنسانى مستقل بذاته ،بل هي شعوره هو من حيث أنه جزء من وحدة عاملة هى وحدة القبيلة، والقيم التى يعبر عنها، وإن كان

(١) تطور الغزل بين الجاهلية الإسلام ، د/ شكري فيصل ص ٢٣ مطبعة دمشق،١٣٨٣هـ -١٩٦٤م.

(٢) الروائع من الأدب العربي - العصر الجاهلى - د/ سيد حنفي وآخرين ١/ ٢٣، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

يعبر عنها لأنه لا يؤمن بها ، فهو لم يؤمن بها نتيجة تفكير خاص في الحياة وإنما آمن بها لأنها القيم السائدة في مجتمعه. فهو لم يصل بعد إلي الطور الذى يستطيع فيه أن يكون لنفسه حكما أخلاقيا وشخصيا»[1].

مما سبق يتضح لنا أنه لا خلاف بين أصحاب هذه الآراء علي خلو الشعر الجاهلى من النزعة الذاتية، وإن الشخصية الفردية ذابت وحلت محلها الشخصية الجماعية وهذا- في رأي بعضهم- بعد نقصا من النقائص التي أصابت الشعر الجاهلي،ويغلب علي ظنى أن هذه الأحكام لم يحالفها الاستقراء التام لنصوص الشعر الجاهلى، فلو أنهم استقرأوا ما خلده لنا الجاهليون لوجدوا تيار الذاتية يسير موازيا لتيار القبلية عند بعض شعراء القبائل أنفسهم ، ولوجدوا أيضا سيطرة النزعة الذاتية عند بعض الشعراء الذين لم يحظوا برضى القبيلة فطرحوا همها ، وانشغلوا بذواتهم ومشاعرهم وأحاسيسهم الشخصية فحسب، وسوف نأتى -إن شاء الله تعالي -ببعض النماذج الشعرية التي تبرهن علي الذاتية الفردية لهؤلاء الشعراء في موضعه من هذا البحث.

أما ارتفاع الصوت القبلى، والذى كان سببا في صدور مثل هذه الأحكام ، فقد كان الباعث عليه " حاجة القبيلة إلي قيادة وجدانية تبث في أبنائها روح المروءة ، والنجدة، وإباء الضيم، وتحدوهم في صراعهم من

(١) ثقافة الناقد الأدبى د/ محمد النويهي ص ٢٦٥، مطبعة بيروت ، ١٩٦٩م الأهلية.

أجل الوجود والبقاء»[1]. وليس هناك من هو أهل لهذه القيادة وأقدر تعبيرا عن آمالها وآلامها إلا شاعرها ، ولا يخفي علينا» أن المجتمع الذى يعيشه الشاعر يمكن أن يكون بالقياس عليه مصدر إلهام ووحي لا ينضبان، وليس من شك أن المجتمع بكل ما يخوضه من معارك، ومن نضال، وكل ما يتصل به من قضايا سياسية ، و اقتصادية تأثيره في الكتاب والشعراء، وهذه مسألة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها»[2].

وإذا كانت قضايا القبيلة ، وأحداثها بمثابة الروافد التي استقي منها الشاعر مادته الشعرية فإن انشغاله بهموم قبيلته، وشدة حرصه علي إرساء مجدها، وإعلاء شأنها لا يجعلنا نتهمه بإهدار ذاتيته، وكيف يهدر ذاتيته؟ وهو لم يأل جهدا فى إثبات وجوده ،وتحقيق ذاته بمثل هذه الأعمال الفنية التي كانت موضع رضي وإعجاب وتقدير لدى أبناء قبيلته، فكان بصنيعه هذا «يؤدي وظيفة اجتماعية لا تتحق إلا بأن يستقبل الجمهور ما أبدع ، وتحقيق الشاعر لذاته بأن يبدع عملا فنيا لا يتم مطلقا إلا إذا كان هناك من يتلقى هذا العمل»[3]. وقد تحقق هذا في المعلقة التي أنشدها شاعر تغلب «عمرو بن كلثوم » فنالت شهرتها، وملأ دويها الأغوار والأنجاد، فحق لبني تغلب أن يمجدوها، ويكثروا من روايتها.

(١) أدب العرب في عصر الجاهلية. د/ حسين الحاج حسن ص ١٦٠ مطبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت.
(٢) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث،د/ محمد زكى العشماوى ص١٢، مطبعة الهيئة المصرية العامة.
(٣) التفسير النفسى للأدب. د/ عز الدين هلال ، ص٣٢ ، مطبعة دار الثقافة بيروت.

أما خلو شعره الجماعي من عاطفته الشخصية، واتهامه بعدم إيمانه بالقيم التي يعبر عنها، فهذا الادعاء يتنافي مع ما ألفناه في نظم شاعر القبيلة الذي كان يعد نفسه جزءا لا يتجزأ من المجتمع الذى ينتسب إليه، فكرس حياته ، وموهبته الفنية من أجل قبيلته، وشمائلها التي يتمسك بها مع إيمانه التام بكل ما يخلعه على قبيلته من هذه الصفات؛ لأنه فرد من أفرادها يعود عليه ما يعود عليها ، فهو يرفض أن يتحدث عن نفسه كفرد متميز، وكيف يتحدث عن نفسه؟ وقد امتزج بقومه وعشيرته، وذاب صوته في أصواتهم، وراح يري بعيونهم ،ويضرب بأكفهم ، وينطق بألسنتهم.

كما إن فى دواوين شعراء القبائل وغيرهم عددا غير قليل من القصائد، والمقطعات التى خلت من الحديث المباشر عن الأحوال الفردية، والمشاعر الذاتية ، فقد فضل أصحابها«استنابة الوسائط الأخرى، كالناقة الظعينة، وحيوانات الصحراء، ومغاراتها، لكي تنقل لنا بصورة غير مباشرة هواجسه الخفية، وأحلامه الغامضة ، وأحواله النفسية ، ولهذا وجب علي قارئ هذه القصائد ألا تخدعهم عناوين الموضوعات،فلا يعجب كيف يصف الشاعر الثور، والظبى، وحمار الوحش، وقليلا ما يقدم لنا نفسه ، ومشاعره، بل إن الأمر علي العكس، فلعل هذا الشاعر يتعفف من الحديث عن الذات، فيجعل العالم كله رموزا له عن قصد، أو عن استغراق في وحدة المعاناة بينه وبين موضوعات هذه المعاناة»[1].

ولك أن تدرك هذا فى قصة الثور الوحشي الواردة في بعض القصائد الصادرة عن النابغة الذبيانى وذلك في أثناء تشبيهه ناقته بثور وحشى

(١) موسوعة الشعر العربى. لمطاوع صفدي، وإبلى حاوى ١/ ٣١، مطبعة بيروت.

بصورة مباشرة مشاعره ، وأحاسيسه ، ونزعاته النفسية تجاه الإنسان وموقفه في الوجود كما رآه وتمثله في وجدانه.

وعودا علي بدء فإن قول القائل : بأن الشعر الجاهلي اختفت منه النزعة الذاتية ، وحلت محلها النزعة الجماعية، وذابت منه الشخصية الفرديه وظهرت بدلاً منها الشخصية القبلية، فسوف نفند قوله هذا بانفعالات الشاعر الجاهلي، وأحاسيسه الذاتية التى كثيرا ما أفاض بها فظهرت واضحة ، وجلية في العديد من قصائده الشعرية بداية من مقدمتها حتي نهايتها.

الذاتية في مقدمة القصيدة الجاهلية:

تعددت أنواع المقدمات ، وأشكالها في الشعر الجاهلي ، فكان منها المقدمة الطللية ، والغزلية، والخمرية وغيرها، وإن كانت المقدمة الطللية أكثر حضورا من غيرها ويؤكد هذا قول القائل: «ولو أننا استقرأنا القصائد فى الشعر الجاهلي لوجدنا أن الكثرة الهائلة فيها مبدوء بالبكاء علي الأطلال»(١).

وأمام هذه المقدمة وقف بعض الأدباء والنقاد القدامى والمحدثين، وتنوعت آراؤهم حول تفسيرها ، فقال الناقد القديم :« إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار ، والدمن ، فبكى، وشكى ،وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها..»(٢).

(١) من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي، د/ سعد ظلام ص ٦٤ طبع مؤسسة بوم للمنشورات.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق أحمد محمد شاكر ١/ ٢٥، مطبعة دار المعارف، ص٢٥.

فالناقد القديم يري أن استمالة القلوب، وتهيئة الأسماع لا تتحقق إلا بمثل هذه المقدمة ، وبهذا الرأي أخذ بعض الأدباء المحدثين كالدكتور طه حسين الذى يري أن المقدمة بمثابة التمهيد، والإعداد للغرض الأصلى على حد تعبيره الوارد في حديثه عن مقدمة زهير بقوله:«فقد كان زهير من أقدر الشعراء القدماء علي خلق البيئة هذه ، وتهيئة الجو الشعري قبل أن يمعن بالسامعين فيما يقصد إليه من أغراض ، وأي خلق للبيئة ، وأي تهيئة للجو، وأي إعداد للسامعين والقارئين، أبرع من هذا القسم الأول من قصيدته المطولة؟ إنه يعمد إلي هذا فى رقة وظرف ورفق وفي وداعة نفس، وحلاوة روح، تثير في نفسك هذه الاشجان الهادئة التي تخرجك عن طورك العادى ، ولا تبلغ بك الحزن الممضى ، ولا اليأس المهلك..»(١).

ويري بعض الباحثين المحدثين: «أن الشاعر الذى استهل قصيدته بهذه المقدمة الطللية يكون محافظا علي طبيعة المدخل إلى القصيدة الطويلة»(٢).

ومنهم من علل السبب في افتتاح الشاعر الجاهلى قصائده بالبكاء على الأطلال كثيرا وشيوع هذا في القصائد الجاهلية بقوله:« ولعل السبب أن العربي فى هذه الصحراء الموحشة كان يحس بالخوف يتهدده ، ويحوطه ، ويضغط عليه ،ويلح علي نفسه إلحاحا شديدا(٣)».

(١) حديث الأربعاء، الدكتور طه حسين ١/ ٨١، مطبعة دار المعارف.

(٢) موسوعة الشعر العربى لمطاوع صفدى ص٣٣.

(٣) من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلى. د/ سعد ظلام ، ص٤٥

وباكتفائنا بهذه الآراء السابقة التي أتينا بها علي سبيل الاستشهاد فقط يتضح لنا أن الناقد القديم ابن قتيبه يري : أن الشاعر الجاهلي استهل قصائده بهذه المقدمة ليستميل السامع نحوه ، ويشد انتباهه إليه. وهذا التفسير يجعلنا ننظر إلي الشاعر نظرة إبداع ، واتباع ،وذلك من خلال تعبيره الصادق عن تجربته الشعورية التي عاشها مع من كان يقطن هذه الديار ، فعند مروره بها ، ووقوفه علي أطلالها تحركت عواطفه ، وهاجت مشاعره الخاصة ، فأبدع في الحديث عن ماضيه الغض بذكرياته الجميلة، وإن لم يكن كذلك، فيكون متبعا ومقلدا لغيره من شعراء عصره.

وهذا الرأي أخذ به الدكتور طه حسين فاتخذ من مقدمة زهير بن أبي سلمى وسيلة لتهيئة الجو الشعري، وإعداد السامعين والقارئين برقته ، وظرفه ، ووداعه نفسه لاستقبال ما يقصد إليه من أغراض.

أما كون الشاعر الجاهلى أتى بهذه المقدمة للمحافظة علي طبيعة المدخل إلي القصيدة، فإن هذا التفسير يصف المقدمات الطللية بأنها مقدمات شكلية، وتقليدية ، احتذاها الشعراء بعضهم من بعض ، وهذا مخالف للواقع المعروف من أن لكل شاعر طريقته الخاصة في التعبير عن مشاعره الذاتية التي أودعها في مقدمته.

ويغلب علي ظنى أن افتتاح الشاعر قصائده بهذه المقدمة بسبب الخوف الذى كان يتهدده بعد تعليلا مناسبا لهذا الاستهلال؛ وذلك لأن «الشاعر في هذه الصحراء باعتباره إنسانا كان يتجاذبه عاملان قويان،

عامل الفناء، وعامل البقاء،.. فعامل الفناء يجعله يخاف ،ويضطرب ، ويحس بالموت يسد عليه منافذ الطريق، ويحيط به فى كل مسلك ، وكان عامل الفناء يلح عليه أكثر من عامل البقاء، وكان يتمثله في كل ما يحيط به في كل مظاهر الحياة تقريبا، وكان يراه في الأهل الأقربين عندما يرحلون قهرا ، وفيهم أترابه ، وأصدقاؤه، وحبيبته، وفي مضارب القوم حين يعصف بهم المطر الشديد ، والريح العاصفة التي تقتلع الخيام، وتكفئ القدور، فلا يستطيع معارضتها أو التصدى لها ، وتظل تلح عليها حتي تبلى وحتي تنال منها ما تنال»[1].

ومن هنا فقد اتضحت لنا الدوافع التي كانت وراءتضمين الشاعر الجاهلى مقدمته الطللية أفجع تجاربه التي عاشها في غربته الدائمة بهذه الصحراء، فتراه يعبر عن انقضاء الزمن بالانتقال والارتحال، ويشكو دائما من القطع والصرم ، وإذا تحدث عن الحب، فإنه يتحدث عن الحب القديم فاعتباره حبا ضائعا ومفقودا ، وغير ذلك من الأحاسيس ، والمشاعر الدالة علي ما فى هذه المقدمات من نزعة ذاتية تبدو لنا أكثر وضوحا عند الإنسان ببعض النماذج الشعرية التى استهلت بالحديث عن الديار كقول امرئ القيس الذى قيل عنه[2]: أول من افتتح الشعر ، واستوقف ، وبكي في الدمن ، ووصف ما فيها . فقال:

---

(١) من الظواهر الطبيعية فى الشعر الجاهلى ، د/ سعد ظلام ، ص٦٥.
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ١٢٨.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل (١)

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمال

ترى بعر الآرام في عرصاتها ... وقيعانها كأنه حب فلفل

كأني غداة البين يوم تحملوا ... لدى سمرات الحي ناقف حنظل

وقوفا بها صحبي علي مطيهم ... يقولون لا تهلك أسي وتجمل

وإن شفائي عبرة مهراقة ... فهل عند رسم دارس من معول

كدأبك من أم الحويرث قبلها ... وجاراتها أم الرباب بمأسل

إذا قامتا تضوع المسك منهما ... نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

ففاضت دموع العين مني صبابة ... علي النحر حتي بل دمعي محملي

فالأبيات السابقة تفصح لنا عن شكل من أشكال المقدمات الطللية التي سجل فيها الشاعر مشاعره ، وأحاسيسه الحزينة أثناء مرورة بديار صاحبته بعد خلوها من أهلها الذين رحلوا عنها، وتركوها مرتعا آمنا للظباء، وأولادها تلهو ، وتلعب في عرصاتها ،وكذلك الرياح التي تناوبت عليها فى جهتين متعاكستين شمالا ، وجنوبا، فإذا غطتها الواحدة بالرمال

(١) شرح المعلقات السبع للزوزني، تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي ص٤ و، مطبعة مكتبة القاهرة.

(٢) السقط: منقطع الرمل، اللوى،: رمل يتعرج ويلتوي ، الدخلو وحومل وتوضح والمقراة ، كلها أسماء أماكن ، لم يعف: لم يمح، الرسم : ما لصق بالأرض من آثار الديار مثل البعر والرماد وغيرهما ، نسج الريحين: اختلافهما ، الآرام: الظباءالبيض، عرصة الدار : ساحتها، القاع: المستوي من الأرض، الفلفل: حب هندى ، الغداة : الضحوة ، تحملوا : ارتحلوا ، لدى : عند، السمر ، شجر الطلح، الحي : القبيلة من الأعراب، نفقة : شقة ، المطي: المراكب . المهراق: المصبوب، أعول الرجل: إذا بكي المعول المبكى، الدأب : العادة، ضاع : انتشر ، الصبابة ، رقة الشوق، المحمل: حمالة السيف.

كشفتها الأخرى، فكان ذلك سببا فى التعرف عليها من خلال ما بقى منها من أثارها ، ثم عاد إلي الماضى بأفجع ما فيه من تجارب مؤلمة عاشها ساعة رحيل الأصحاب، وما ألم به من تعب، ونصب، وبكاء شديد ، والأصحاب يلتفون حوله ، ويخففون عنه ، وهو يجد شفاءه ، وراحته في هذه الدموع المتدفقة التي لا جدوى من سيلانها.

ولعل هذا كان سبباً في قول القائل عن المقدمة الطللية بأنها : " تزخر بالحياة، وتتدفق بها تدفقاً حتي لتكاد تسمع من خلالها نبضات قلوب الشعراء، وخفقانها ،ونحيبهم ، وعويلهم وحتي ليكاد تتخيلهم ،بل تراهم، وهم يذرفون العبرات ، ويسكبون الدموع بغزارة وحرارة (١) ويمكننا ملاحظة ذلك في بعض مقدمات شعراء القبائل العربية الذين عبروا عن مشاعرهم الخاصة ،وعواطفهم الذاتية في مستهل قصائدهم(٢)، ولذا نجد بعض الأدباء المحدثين يري :" أن ظاهرة المنهج الثابت للقصيدة الجاهلية ،ظاهرة الارتباط الفني بين الشاعر وقبيلته جعل القصيدة الجاهلية تنقسم إلي قسمين : قسم ذاتي يتحدث فيه الشاعر عن نفسه ،ويصور فيه عواطفه،ومشاعره، وانفعالاته، وهو قسم تستطيع أن تضع فيه هذه المقدمات، وما يتصل بها من وصف الرحة،والصحراء،والقسم الآخر

(١) مقدمة القصيدة في الشعر الجاهلي . د/ حسن عطوان ص ١٢٨ ، مطبعة دار المعارف.

(٢) انظر علي سبيل الاستشهاد عينيه لقيط بن يعمر الأيادى ، التى استهلها بقوله:

يا دار عمرة من محتلها الجرعا ∴ هاجت لي الهم والأحزان والوجعا

انظر : مختارات شعراء العرب لابن الشجري. تحقيق د/ نعمات محمد أمين طه ص ٢٥ ، مطبعة دار التوفيقية وكذلك ميمية الشاعر ربيعة بن مقروم الضبي ومطلعها:

أمن آل هند عرفت الرسوما ∴ يجمران قفرا أبت أن تريما

انظر : المفضليات للضبى ٢/ ٦٦٥.

غيري يتحدث فيه الشاعر عن قبيلته وفاء بهذا العقد الفني بينه وبينها "(١).

ومع اتفاقي مع قائل هذا القول في أن الشاعر حقق ذاته،وعبر عن مشاعر، وانفعالاته في مقدمة القصيدة ، إلا أنني أختلف معه في تقسيمه للقصيدة، وفصله لمقدمتها عن بقية أجزائها ،لأن ذلك يؤدي إلي بتر العمل الفني المتكامل، وتمزيق العلاقات، والروابط الكائنة بين أجزائه, بالإضافة إلي هذا ، فإن معظم هذه المقدمات تتصل اتصالاً مباشراً ، أو غير مباشر ببقية أجزاء النص ،وكيف تنفصل المقدمة عن بقية النص، والشاعر واحد ومشاعره ،وأحاسيسه، وعواطفه، وأفكاره، وخياله كل هذا وذاك ما هو إلا ترجمة ذاتية لحالته النفسية التي كان عليها حين نظمه لهذا النص .

ويستطيع القارئ ملاحظة ذلك في بعض القصائد الشعرية التي خلدها لنا شعراء العصر الجاهلي ، فعلي سبيل المثال معلقة الشاعر عمر بن كلثوم التي استهلها بالحديث عن الخمر فقال (٢) :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ∴ ولا تبقي خمور الأندرينا

عند مجيئه للغرض الأصلي الذي أنشد من أجله قصيدته , نجده يدمج ذاته في الذات القبلية ،ويستشعر وجوده الخاص من خلال تفاعله مع الوجود القبلي،فنراه يقول :

أبا هند فلا تعجل علينا ∴ وانظرنا نخبرك اليقينا

فإذا القينا نظرة متأملة علي هذه القصيدة بحسب ما وصلت إلينا، لا

(١) الشعر الجاهلي مادته الفكرية وطبيعته الفنية د/ محمد أبوالأنوار ص٣٦٨ مكتبة الشباب.
(٢) شرح القصائد العشر للإمام التبريزي ص٢٠٩ ، طبع مكتبة الثقافة الدينية.

بحسب الخلاف الذي دار حول مقدمتها ،وغرضها الأصلي،نجد أن مقدمتها تتضمن حديث الشاعر عن الخمر , وغرضها الأصلي يتضمن حديثه عن لومه " عمر بن هند "وفخره بأمجاد قبيلته , فهل انفصلت مقدمتها عن غرضها الأصلي ؟ وكيف تنفصل والقصيدة بأكملها جاءت معبرة عن مشاعر الشاعر , وانفعالاته تجاه الموقف الذي تعرض له ؟

فقائل هذه القصيدة " عمرو بن كلثوم " الذي استشاط غضباً , وبادر بقتل ملك الحيرة " عمرو بن هند " الذي أراد إهانة أم الشاعر " ليلي بن المهلهل " ولكي يعوض الشاعر إحساسه بالذل والهوان الذي تعرض له عن طريق غير مباشر , لجأ تلقائياً إلي الشعور المضاد , وهو شعور الزهو والاعتزاز،وكما كان الهوان متضخماً في نفسه كان شعوره بالفخر، والزهو الوارد في قصيدته شعوراً متضخماً، ومبالغاً فيه مبالغة غير مألوفة .

ومن ثم فقد تضمنت مقدمة القصيدة هذه المشاعر من خلال اسلوب التعالي المتمثل في قوله " ألا هبي " فهو بأمرها أمراً بأن تكون مجرد ساقية له ولندمائه، وكذلك من خلال شربه الخمر بنهم، فالخمر من شأنها تملأ نفس شاربها بمشاعر غير عادية تحقق له ما يريد، كما أن خمرته خمرة معينة بالغة الإثارة ، والتأثير في مشاعره وانفعاله بالإضافة إلي هذا، فإن حديثه عن أم عمرو التي غيرت مجري الكأس، فيه إيحاء بما أراده الملك من استبدال عزة الشاعر، وكرامته، التي جبل عليها ، بذله وهوانه إلي غير ذلك من المعاني التي أودعها الشاعر في مقدمة قصيدته .

أما بقية أبيات القصيدة ،فقد ارتبطت ارتباطاً موضوعياً بمطلعها

وذلـك ، لأن باقي أبيات القصيدة لا تخـرج عن عنصري المطلع ، فأما عنصر الشعور بالهوان، فيتمثل في لومه " عمرو بن هند" علي تحقيرهم ، وما يتفرع عن هذا المعني من إباء الضيم ، والأنفة من الهوان .

وأما عنصـر التعويض بالفـخر المبالغ فيـه، فقد تمثل في هـذا الفخر البالغ الكثرة ، والبالغ التضخيم والتفخيم [1] والذي يمكن ملاحظته في ثنايا الغرض الأصلي .

وكما تضمنت المقدمة الطللية حديث الشاعر عـن ذاته وأحواله الفـرديـة ، فإن المقـدمة الغزلية أيضاً لم تكن أقل منها في التعبير عن عواطفه، ومشـاعره من خلال حديثه عن الـمحبوبة ، وصدهـا وهجـرها، ورحيلـها ، وما يترتب عليه من حزن وألم ، وتذكر وعـتاب ، ولـك أن تلاحظ هذا في مقدمة الحادرة الغزلية التي استهلها بقوله[2] :

بكـرت سـمية بكـرة فـتمتع ... وغدت غدو مفارق لم يربع [3]

وتـزودت عـيني غـداة لقـيتـها ... بلـوي البـنينة نـظرة لـم تقلع

وتصـدفت حتي اسـتبك بـواضح ... صلت كمنتـصب الغزال الأتلع

وبمـقلتي حوراء تحـسب طرفـها ... وسـنان حـرة مسـتهل الأدمع

وإذا تـنازعك الـحديـث رأيتـهـا ... حـسنا تبـسمها لـذيذ المكرع

---

(١) مطلع القصيدة العربية د/ عبد الحليم حفني ، ص١١٦.

(٢) ديوان المفضليات للمفضل الضبي، شرح ابن الأنباري ص٤٨، نشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

(٣)بكرت : ابتدأت في التأهب للخروج، البكرة: أول النهار ، تمتع :تحـسـر وقيل معناه التزود، غدت غدو: فارقت فراق ربع، اللوى: منعرج الرمل، لم تقلع: لم ترتفع، تصـدفت : أعرضـت ، استبك: أسرتك، الواضح:الأبيض، الأتلع : الطويل العنق ، الوسن : الفتور، حرة: كريمة.

بهذه المعاني الشجية استهل الشاعر مقدمته الغزلية التي أباحت بأحاسيسه ،ومشاعره تجاه محبوبته في ساعة رحيلها . وفراقها فراقاً جعله لا يغفل بصره من النظر إليها ، ثم سبح الشاعر بخياله في ماضيه الحافل بذكرياته الجميلة مع صاحبته التي فتنته بمحاسنها ، كجيدها الذي مائل جيد الغزال،وعينيها الحوراوين ،ووجهها الجميل المشرق بابتسامتها التي أظهرت ملاحة ثغرها ،وعذوبة ريقها الذي أشبه عذوبة الماء الصافي،وغير ذلك من المعاني الغزلية التي أودعها الحادرة في مقدمة هذه القصيدة .

ومن يستقرئ دواوين بعض الشعراء الجاهليين يجد فيها العديد من المقدمات الغزلية [1] التي تغني فيها الشعراء بذكرياتهم الجميلة ، وعبروا عن أفكارهم وخواطرهم ، وناجوا فيها أصحابهم وأحباءهم ، وبثوا همومهم ،ومشاعرهم الذاتية التي ضجت بها قلوبهم،ومن ثم فالبكاء علي الأطلال تعبير ذاتي ،بل ربما يكون الجزء الذووي في القصيدة بعد ما تصورناه إنها عملية إفضاء نفس ،وتعبير عن المعاناة والصراع في داخل الشاعر ، وليست غرضاً غيرياً كما قال بعض النقاد المحدثين [2] .

---

(١) علي سبيل الاستشهاد .انظر : نونية المثقب العبدى التي استهلها بقوله:

أقاطم قبل بينك متعنى ... ومنعك ما سألت كأن تبينى

المفضليات للضبى ص ٥٧٤.

- وكذلك ثعلبه ابن صغير في دائيته التي بدأها بقوله:

هل عند عمرة من بنات مسافر ... ذي حاجة متروح أوباكر

المرجع السابق ص٢٥٥.

- وكذلك الأعشى الكبير في ميميته التي مطلعها:

ألم خيال من قتيلة بعدما ... وهي جبلها من جبلنا فتصرما ديوانه ص ٣٧٥

- وكذلك قول عبده ابن الطبيب في لاميته التي استهلها بقوله:

هل حبل خوله بعد الهجر موصول ... أم أنت عنها بعيد الدار مشغول

المفضليات ص ٢٦٨.

(٢) الشعر الجاهلي د/ محمد أبو الأنوار ص ٣٦٨.

ويؤيد هذا صاحب الروائع من الشعر العربي الذي أعد " المقدمة الطللية والغزلية بمثابة الجزء الذاتي الذي وجد فيه الشاعر وسيلته المفضلة للتعبير عن مشاعره ،وعواطفه الشخصية فقال : ففي المقدمات المختلفة التي عرفها الشعر الجاهلي يتردد هذا الصوت الذاتي معلناً عن شخصية صاحبه معبراً عن عواطفه ومشاعره ،وانفعالاته الشخصية مسجلاً جوانب حياته الخاصة، وموقفه منها،وكأنما كان الشاعر يجد في هذه المقدمات فرصة يستطيع أن يفرغ فيها لنفسه، متخفياً من زحمة الالتزامات القبلية، وتبعاتها الثقيلة، ولعل في هذا ما يفسر حرص الشعراء الجاهليين علي هذه المقدمات حتي أصبحت تقليداً ثابتاً في القصيدة الجاهلية " [1] .

النزعة الذاتية في شعر بعض الشعراء الجاهليين :

النزعة الذاتية فطرة في الإنسان بصفة عامة , والشاعر بصفة خاصة , فهو بطبيعته يعتز بنفسه،ويحرص دائماً علي الافتخار بها ،فيشدو بأمجادها، ويتغني بمآثرها ،ويكثر من الحديث عن آمالها وآلامها،وما يكمن في أعماقها من نزعات نفسية، ومشاعر وعواطف ذاتية، ومن ثم، فإن ارتفاع الصوت القبلي لا يخمد الحس الفردي، بل لابد لهذا الحس أن يظهر ولو في لحظات مختلسة عند بعض الشعراء القبليين، ثم يرتفع ،ويدوي عند الشعراء الخلعاء الذين تخلت عنهم قبائلهم، فتركوها بإرادتهم , وفقدوا الإيمان بكل معاني القبلية , وانشغلوا بذواتهم وبحياتهم

(١) الروائع من الشعر العربي .د/ يوسف خليف ص٢٧.

الخاصة , كما ظهر الصوت الذاتي أيضاً في حالة الجفوة التي كانت تحدث بين بعض الشعراء وقبائلهم , وكذلك عند بعض الشعراء الذين انشغلوا بذواتهم , وعاشوا لأنفسهم فقط , كامرئ القيس الذي جاءت معظم أشعاره معبرة عن ذاته, وحياته ومغامراته العاطفية , وتجاربه الشخصية التي أفصح عنها في قوله : [1] .

ألا رب يوم لك منهن صالح ... ولا سيما يوم بدارة جلجل [2]

ويوم عقرت للعذاري مطيتي ... فيا عجبا من رحلها المتحمل

فظل العذاري يرتمين بلحمها ... وشحم كهداب الدمقس المفتل

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... قالت لك الويلات إنك مرجلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معا ... عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ... ولا تبعديني من جناك المعلل

ففي هذه الأبيات يذكرنا الشاعر بأيام لهوه ،وعبثه مع صواحبه في يوم " دارة جلجل " يوم أن تنعم معهن ، وسعد بهن، ونحر لهن مطيته، فاستطبن لحومها , وشحومها التي أشبهت الدمقس في بياضه،وعند انتهائهن من اللهو والمرح تهيأت العذاري للرحيل, فتقاسمن فيما بينهن متاعه بعد ذبحه لمطيته،ثم الح علي أبنة عمه عنيزة ،لكي تحمله معها علي

(١) شرح القصائد السبع الطوال. لابن الأنباري ص٣٢، والقصيدة مطلعها:
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوي بين الدخول فحومل.
(٢)دارة جلجل: موضع: يرتمين بلحمها: يتهادين، الدمقس: الحرير الأبيض، الخدر: الهودج ، مرجلي : أي امشي راجلة، الغبيط: قتب الهودج، سيري : أي هوني عليك ولا تبالي أعقر أم لم يعقر، الجنى ما يجتني منها ، المعلل : المتلهى.

مقدم هودجها ،ولكن جرأته التي كانت تدفعه دائماً إلي اقتحام خدور النساء دفعته أيضاً إلي اقتحام خدر أبنة عمه ، فصاحت به، وحذرته بمبارحة خدرها فيجيبها -بعد أن ألحت إليه بالنزول عن بعيرها - ويدعوها إلي إرخاء زمام بعيرها ، وتركه في حظوته بقربها ، والتلهي بمحاسنها .

لقد أظهر لنا امرؤ القيس تنكره للقيم , والأخلاقيات التي كانت موضع إعزاز وتقدير لدي القبيلة ، وذلك بخروجه، واستهتاره بكل عرف, وخلق من أجل أن يحقق لذاته ما تهفو إليه نفسه من شهوات ليس في الخفاء بل بالمجاهرة ، والتباهي بكل ما أباحه لنفسه من ملذات أفصح عنها في قوله : (١)

سموت إليها بعدما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالا علي حال(٢)

فقالت سباك الله إنك فاضحي ... ألست تري السمار والناس أحوال

حلفت بالله لها حلفة فاجـــر ... لتاموا فما إن من حديث ولا صال

وصرنا إلي الحسني ورق كلامنا ... ورضت فذلت صعبة أي إذلال

وبديوانه العديد من قصائده الذاتية (٣) التي كشفت لنا عن سلوكه

(١) ديوان امرئ القيس: تحقيق محمد أبو الفضل ،ص٣١، مطبعة دار المعارف بتصرف. والقصيدة مطلها :ألا عم صباحا أيها الطلل البالى .. وهل يعمن من كان في العصر الخالى

(٢) سموت: نهضت ، سمو حباب الماء: أي كحباب الماء،وهو يعلو بعضه بعضا في رفق ومهل. حباب الماء: طرائقه، حالا علي حال: أي شيئا بعد شئ حتي صرت إلى الذى أردت، سباك الله: أي باعدك الله وفضحك وقالت ذلك ضجرا خشية من الفضيحة، الفاجر: الكاذب، الصالى: أى الذى يصطلى بالنار، الحسني، أي ما نحب، ورق كلامنا: أي لم نرفع أصواتنا، رضت: ذلت بعد امتناع والمعني لينتها بالكلام والمداراة كما يراض البعير بالسير حتي يذل.

(٣) على سبيل الاستشهاد .انظر ديوانه ص ٤١، ١٠٦، ١٠٩، ١٧١.

المخالف للعرف والتقاليد، وذلك من خلال حكاياته عن مغامراته العاطفية التي استخدم فيها الحوار, والإيحاء، واللمح،والكناية وغير ذلك من الوسائل الفنية التي أضفت علي شعره الذاتي نوعاً من التشويق والإمتاع .

وكما وقفنا -من خلال النماذج السابقة - علي النزعة الذاتية في شعر امرئ القيس سوف نقف أيضاً علي تلك النزعة في شعر الشاعر عنترة بن شداد الذي " أصابه في دور النشأة ما أصابه من أمور الخدمة ورعي الماشية بسبب عبوديته ،لأنه ابن أمة سوداء تسمي " ذبيبة " وكان من عادات العرب ألا يلحقوا أولاد الإماء بنسبهم إلا إذا كان لهم فضل يؤثر"(١) .

وطالما لم يتحقق هذا الفضل لعنترة ،فسوف يلاقي ما يلاقيه الخدم , والعبيد من الذل والهوان الذي عبر عنه في قوله :(٢)

المال مالكم والعبدعبدكم ... فهل عذابك عني اليوم مصروف

وظل الصراع قائماً بين عنترة ،وقبيلته التي جعلته عبداً من عبيدها لكونه هجيناً أسود اللون لا يعترف له أبوه بالانتساب إليه ،فكان ذلك سبباً في خروجه علي القبيلة ،وإعلان الثورة عليها ،والاعتماد علي نفسه، وأخذه بالأسباب التي تؤهله للخلاص من هذا الذل والهوان،حتي سنحت له الفرصة التي حققت له ادعاء أبيه له ، وذلك " عندما أغارت بعض أحياء العرب علي بني عبس ،،فأصابوا منهم ، واستاقوا، وعنترة يومئذ

(١) الروائع من الأدب العربي ١/ ٣٠٦.

(٢) ديوان عنترة، ص ٥٣ ، مطبعة بيروت.

ولولا الهوي ما ذل مثلي لمثلهم ولا خضعت أسد الفلا للثعالب

هكذا ظل شاعرنا يشدو بمحبوبته ، ويثغني بذكرها، ويكثر من مخاطبتها ،ويعلو صوته الذاتي وبخاصة أثناء حديثه عن مغامراته القتالية التي كان يخوضها فتراه يقول : (١)

يا عبل كم من غمرة باشرتـــها بالنفس ما كادت لعمرك تنجلي

وكذلك قوله : (٢)

يا عبل لو عاينت فعلي في العدا من كل شلو بالتراب معفـــر

حتي في ساعات القتال , وتلاحم السيوف , يشتد ظمأه إلي رؤيتها وإمتاع طرفه بجمالها, فيتخيلها في بريق السيوف, ولمعانها , فيشدوا بها قائلاً : (٣)

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر بالدم

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبســم

ويشعر عنترة بجفوة محبوبته، فيستعير قلبه، ويذبل جسمه،وتتكاثر عليه الهموم والأحزان، فيبحث له عن ند وشبيه يشاركه أحاسيسه وآلامه ' وقد كانت الطبيعة دائماً أما حنونا يجد فيها الشاعر تعاطفاً ومصادقة، ويتخذ من ظواهرها -حية وجامدة - مستأنسة أو متوحشة يتخذ منها أشياهاً , ونظائر "(٤) فنجده يقول : (٥)

(١) شعراء النصرانية ، لويس شيخو ، ص٨٠٧، نشر مكتبة الآداب.
(٢) المرجع السابق، ص٨٤١.
(٣) تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي.د/ شوقي ضيف، ص٣٧٤.
(٤) الإسلام والشعر ، د/ إخلاص فخرى ص٢٣١، مطبعة مكتبة الآداب.
(٥) ديوانه ، ص١٠٠.

إن طيف الخيال يا عبل يشفي و يداوي به فؤادي الكئيب(١)

وهلاكي في الحب أهون عندي من حياتي إذا جفاني الحبيب

يا نسيم الحجاز لولاك نطفا نار قلبي أذاب جسمي اللهيب

لك مني إذا تنفست حر ولريالك من عبيلة طيب

ولقد ناح في الغصون حمام فشجاني حنينه والنحيب

بات يشكو فراق ألف بعيد وينادي أنا الوحيد الغريب

يا حمام الغصون لو كنت مثلي عاشقاً لم يرقك غصن رطيب

فاترك الوجد والهوي لمحب قلبه قد أذابه التعذيب

فافتتانه ببعض مظاهر الطبيعة ، ومخاطبة النسيم ، وشجوه لنوح الحمام , واندماجه معه اندماج الألفة ،والمشاركة يجعلنا نصحح قول القائل: " بأن الشاعر الجاهلي كان يصف مظاهر الطبيعة وصفاً مجرداً لا تظهر فيه ذاتيته , ولا تتحسس منه وجدانه ومشاعره "(٢) .

وإذا كان هذا الحب سببا في جذب عنترة إلي قبيلته والدفاع عنها , فإن ذلك لا يعني أنه أصبح شاعراً قبليا، بل إن بديوانه العديد من القصائد , والمقطعات التي علا فيها صوته الذاتي ، وجاءت معبرة عن تجاربه , ومشاعره ،ومعاناته، وآلامه،وآماله ، وغير ذلك من نزعاته النفسية التي أودعها في شعره .

(١)) تطفا: سهل تطفا، الريا: الريح الطيبة، شجاني: أحزنني.
(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري.د/ محمد مصطفى هدارة، ص١٧٤. دار المعارف.

وإذا كان عنترة بن شداد قد علا صوته الذاتي في ظل تواجده في قبيلته ، فإن طرفة بن العبد قد خلعته قبيلته فأعلن خروجه ، وتمرده عليها، وراح يشدو بشعره الذاتي معبراً عن آلامه وجراحه ، وشدة تأثره لما وقع عليه من ظلم أهله وعشيرته فقال : (١)

وظلم ذوي القربي أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند(٢)

فطرفة بن العبد ينتمي إلى قبيلة قيس بن ثعلبة ، وهي فرع من فروع بكر بن وائل ، ولربما كان الظلم الذي وقع على أمه وأولادها من قبل أعمامه عند تقسيم ميراث أبيه سبب من الأسباب التي دفعته إلى الحياة اللاهية العابثة ،ولذا نجده يذكر ما فعله أولئك الأعمام بأمه " وردة " التي سلبوها حقوقها ،وحقوق أبنائها الصغار، واعتبروا ذلك شيئاً صغيراً ، وهو في الحقيقة أمر خطير قد يؤدي إلى القتال، وإراقة الدماء ، لم يحذرهم من الظلم ، وما يسببه بين أبناء العمومة من فرقة ، وعداوة ، وذل كل بيد أخيه ،كما حدث بين الحيين الشقيقين بكر ،وتغلب ، بسبب تعادي " كليب بن وائل " في الظلم حتى قتله " جساس بن مرة " فتعادي الفريقان ، واشتعلت نار العداوة بينهما عبر عن هذا بقوله : (٣)

ألا تنظرون بخيل وردة فيكم صغير البنون ورهط وردة غيب(٤)

(١) ديوان طرفة بن العبد : تحقيق د/ علي البجدي ، ص١٨٤ نهضة الإسلام.
(٢) المضاضة: تعني الأمر والشدة؛ يقال: بلغ من فلان وأثر في نفسي توجع الحزن والغضب الشديد من الهضم ونحو القطع
(٣) شعراء النصرانية قبيل الإسلام ص٢٩٨.
(٤) تنظرون : تنتظرون ؛ وردة : أم طرفة وإخوتها ؛ غيب : غائبون ؛ يحذف الأمر : تقول: الحذر الحذر ؛ الخيل : أصلها الخيل أي الفرسان

قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظل له الدماء تصبب

والظلم فرق بين حيي وائل بكر تسائلها المنايا تغلب

ولعل الظلم كان أحد الأسباب التي دفعته إلى اللهو ، والعبث بجانب هذا افتقاده لأبيه العبد بن سفيان الذي كان سيداً من سادات بكر مع امتلاكه بعض المال الذي أعانه على إشباع رغائب نفسه مع زهوه بشبابه، وشاعريته، وبعراقة منبته، وغير ذلك من الأسباب التي جعلته لا يعبأ بلوم قبيلته ، وإعراضها عنه بسبب إقباله على شرب الخمر، ومصاحبة الندماء، والرفاق الذين رآهم كالنجوم في مجلس شرابه الحافل بالقيان ، وآلات الغناء ، وكل ما يبعث على الطرب ، وانتهاب الملذات التي جعلته " لا يبقي على الشليد من ماله ، أو الطريف منه، فتحامته العشيرة، ونفر منه أولياؤه ، فهام على وجهه في أحياء العرب ،والفلوات الواسعة، وبعد أن كان يعيش في حسب من قومه أصبح يخالط الصعاليك، وقطاع الطرق حتى عرفوه وعرفهم ،وأصبحوا يعدونه واحداً منهم (١) نجد كل هذا في شعره الذي قال فيه :(٢)

تداماي بيض كالنجوم وقينة تروح إلينا بين برد ومجسد (٣)

(١) تعليقات العرب: د/ بدوي طبانة ص١١٤ نهضة الإسلام.
(٢) شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري : ص١٨٨.
(٣) التداماي : الأصحاب، كالنجوم: كالأعلام ، القينة : الأمة ، برد ومجسد: أي تلبسها برد ومجسد والمجسد الثوب المصبوغ بالزعفران ، الرحيب: الواسع؛ فناء الدار: ساحتها القدس: الصبر، بكأة الخمر: أي يخلط بالماء؛ فاره الطرف: على رمائها : شرعية الدم شدة ؛ أم عمرو: إحدى الخمارة؛ أم الزيل: من كناني، من أبرز التي عاشت على قارعة الطريق ؛ الشيم: الخمر الجيدة؛ الطوال: الصعاليك؛ الطرداء: الطرداء ؛ يريد: من أدم وأدق التمائم الأعشاب: الذي قد بالأقذاء.

رحيب قطاب الجيب منها رفيقة ... بجس الندامي بضة المتجرد

إذا نحن قلنا اسمعينا انبرت لنا ... علي رسلها مطروفة لم تشدد

وما زال تشرابي الخمور ولذتي ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلي أن تحامتني العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المعبد

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ... ولا أهل هذاك الطراف الممدد

ولم تقف ذاتية طرفة عند تعبيره عن مجالس لهوه وعبثه فحسب،وإنما علا صوته الذاتي أيضاً في ثنايا فخره بشجاعته، وجرأته وسرعة استجابته للخطوب, والشدائد تعينه علي ذلك ناقته القوية السريعة التي لا تعبأ بشدة الحر، ولا وعورة الطريق، كما افتخر بكثرة عطائه، ورفده لكل من استرفده،وإعانته لكل من استعان به، فمن طلبه في مجلس اللهو يجده،ومن يطلبه في مجلس الشراب يجده، فإذا التقي الجمع بعد تفرقهم كان في الذروة بينهم لما حظي به من الشرف والسؤدد عبر عن ذلك بقوله : [1]

إذا القوم قالوا : من فتي؟ خلت أنني ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلد[2]

أحلت عليها بالقطيع فأجذمت ... وقد خب آل الأمعز المتوقد

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٣.

(٢) من فتي: لأمر عظيم ظننتني عنيت بذلك ، أحلت : أقبلت عليها بالسوط، القطيع: السوط، أجذمت : أسرعت، خب: جري عند اشتداد الحر، الأمعز : المكان الغليظ الكثير الحصى، المتوقد: الذي يتوقد بالحر، ذالت: ماست في مشيها وتبخترت، وليدة مجلس : أي وليدة عرضت علي أهل مجلس فأرخت ثوبها واهتزت بأعطافها، السجل: الثوب الأبيض الممدد، التلاع: مجارى الماء التي تستر من نزل فيها، يسترفدني"أي أرفد من يسترفدني، تبغني: تطلبني، حلقة القوم : مجلسهم ، الحوانيت: بيوت الخمارين، تلاقيني: أي وجدتني، ذروة كل شئ :أعلاه المصمد أي الذى يصمد الناس إليه من شرفه.

فذالت كما ذالت وليدة مجلس ... تري ربها أذيال سحل ممدد

ولست بحلال التلاع مخافة ... ولكن متي يسترفد القوم أرفد

وإن تبغني في حلقة القوم تلقني ... وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد

وإن يلتق الحي الجميع تلاقني ... إلي ذروة البيت الشريف المصمد

كما تبدو لنا ذاتية طرفة من خلال حديثه عن مشاعره التي شعر بها أثناء ارتحاله، وانتقاله من مكان إلي مكان، فها هو ذا يتجرع مرارة الغربة، وينهل من كأسها , ويتذوق ذل الجوار من هذه المرأة التي أدمت جرحه، وآلمت نفسها بسؤالها عن أهله وعشيرته، وديارة, فراح يدعو عليها بأن يصيبها ما أصابه من بعد ،واغتراب عن الأهل والأحباب، وهنا يثوب طرفة إلي رشده ،ويعرف قيمة أهله وقومه , فيقرر أن الإنسان يحظي بحياته وعزته، ومهابته بينهما، وينال الذل والهوان والضياع , وهو بعيد عنهما علي حد تعبيره في قوله :[1]

ولا غرو إلا جارتي وسؤالها ... ألا هل لنا أهل؟ سئلت كذلك[2]

يعيرني جوب البلاد ورحلتي ... ألا رب دار لي سوي حر دارك

وليس امرؤ أفني الشباب مجاورا ... سوي حية إلا كآخر هالك

ثم شاءت الأقدار لهذا الشاعر أن يعود مرة أخري إلي أحضان قبيلته، ويشدو بقصيدته الرائية الطويلة التي أطلق عليها أحد الباحثين بمقصيدة

---

(١) ديوانه ،ص١٠٩.

(٢) لا غرو: لا عجب، سئلت كذلك : هذا دعاء عليهما ، جوب البلاد: السير فيها، حر الدار : وسطها وإكرامها.

"العودة" وقال في تقديمها : " والقصيدة كما يبدو من نهايتها نظمت بعد أن صفا الجو بين طرفة ،وقومه ، وزالت الجفوة التي كانت بينهما،وانتهت القطيعة التي أفسدت علاقة القربي بينهما، وانقشعت الغشاوة التي اعترف طرفة بها بأنها كانت تغشي عينيه ،تحجب الرؤية الصحيحة عنه، وترد بصره عن إدراكها علي حقيقتها، وفي ختام هذه القصيدة يعلن تصحيح الموقف بينه، وبينهم ،ويصرح بأن الأمور قد عادت إلي نصابها " (١).

النزعة الذاتية في شعر بعض الشعراء الصعاليك :

تحدثت فيما مضي عن علاقة الفرد بمجتمعه القبلي , ومدي حاجته إلي ذلك المجتمع ،،وبخاصة في بعض الأوقات التي تكشر له البيئة عن أنيابها ،أو تسلط عليه بعض طغاتها ، وجبابرتها،ويبقي الفرد متمتعاً بعطف قبيلته عليه ،وبحمايتها له ما دام قائماً بواجباته المترتبة عليه شاعراً بعظم التبعة " فإذا أجرم، أو عمل عملاً ينافي شرفه أو شرف قبيلته ،واستمر في غيه لا يسمع نصائح أهله ،وعشيرته، كاسراً أعراف آله،وقبيلته فقد عصبية أهله وقبيلته له،, وهام علي وجهه طريداً ..يقال للرجل الذي تغضب عليه قبيلته،, وتحرمه من عطفها , وعصبيتها له الخليع(٢) ، فقد بصبح وجود هذا الخليع في قبيلته "وصمة في جبينها، وسبة في مجدها وشرفها ،وحطا من قدرها بين القبائل ،فترى أنها أمام عضو فاسد لا يرجي إصلاحه،ضرره أكثر من نفعه،تتبرأ من نسبته إليها، حرصاً علي سمعتها، وإبقاء علي كرامة

(١) الروائع من الأدب العربي، د/ سيد حنفي ، ص٢٣٨.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.د/ جوادعلي ١/ ٤١٠، طبع بيروت ١٩٧٧.

المجموع من أن يسيء إليها فرد فتخلعه " (١).

ومن خلعاء القبائل ، وشذاذها ،وأغربتها السود الذين احترفوا السلوك العدواني بقصد المغنم سواء أكان في صورة لصوصية، أو قطع طريق أو سطو أو غارات أو اغتيال " (٢) . تكونت هذه الطائفة التي سميت بالصعاليك ،ومن خلال موقف العداء السافر، والمتبادل بينهم، وبين قبائلهم بدت لنا نزعتهم الذاتية في شعر بعض شعرائهم الذين تنكروا للحياة الاجتماعية القبلية، ورفضوا الخضوع والإذعان لقيمها ، وعاداتها وتقاليدها، وخرجوا من حمي قبائلهم ، وشقوا طريقهم بالأسلوب الذي يتلاءم مع حياتهم معتمدين علي قوتهم الفائقة ،وشجاعتهم النادرة التي تمكنهم من الحصول علي المال، وغيره من المغانم التي يستبيحونها لأنفسهم بالغزو ،والإغارة للسلب والنهب .

ومن هنا ،فقد وجدت الأسباب ، وتوافرت الدوافع التي جعلت هؤلاء الصعاليك ينطلقون في التعبير عن حياتهم ، وسلوكياتهم ، ومغامراتهم انطلاقاً متحرراً كما فعل الشنفري أثناء حديثه عن حياته في الصعلكة ، فابتدأها بأهم مقوماتها في نظره التي تمثلت في الشجاعة الفائقة علي حد قوله : " فؤاد مشيع " والسلاح بنوعيه ، السيف للقتال ،والقوس لرمي الأعداء أو الصيد .

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي. د/ يوسف خليف ص٩٤ مطبعة دار المعارف.
(٢) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، د. عبد الحليم حفني ،ص٨٥ مطبعة الهيئة المصرية العامة.

وبعد استطراده في الحديث عن القوس التي هي مصدر حمايته ،ومعيشته انتقل بنا بالحديث عن ذاته , وما تتصف به من فضائل جاءت في عكس هذه الصفات التي ذكرها , كالراعي الأحمق الذي لا يحسن غذاء سوامه , والجبان , والسيء الخلق , والملازم لامرأته والمعتمد علي مشورتها , ورأيها , والذي يسيطر عليه الخوف , فيصبح قلبه من اضطرابه كأنه معلق في طائر يعلو به،وينخفض, والناقه الذي لا خير فيه، والمقيم في داره لا يبرحها ،والمتفرغ لمغازلة النساء، والداهن الذي يتزين بالدهن،ويتكحل بالكحل ،فيصير من المخنثين، والضئيل من الرجال ، والضعيف الذي لا خير فيه ، والخائف الأعزل من السلاح، والمتحير الضال عن الطريق أثناء سيره في الصحراء التي لا معالم فيها ، وغير ذلك من الصفات التي نفاها عن نفسه ، وأثبت لها ضمنياً عكس هذه النعوت التي ذكرها في قوله : (١)

وإني كفاني فقد من ليس جازياً بحسني ولا في قربه متعلل (٢)

(١) ديوان الشنفرى ، إعداد طلال حرب ، ص٥٦ مطبعة صادر بيروت ، في الأدب الجاهلي دراسة ونقد د/ علي علي صبح ص١٠١، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، والشنفرى شاعر الصعاليك .د/ عبد الحليم حفني ص١٢٦ مطبعة الهيئة المصرية العامة. والقصيدة مطلعها: أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإن إلي قوم سواكم لأميل.

(٢) التعلل:اللهى. مشيع : شجاع. الأبيض :السيف، أصليت: صقيل. صفراء عيطل: قوس. طويلة العنق. الهتف : الصوت المنغم. الملاسة : ضد الخشونة الرصائع: جمع رصيعة وهي مايرصع به أي يحلي به ، نيطت: علقت ، المحمل: ما يعلق به السيف، زل السهم: خرج ، حنت : صوتت، المرزأة : كثيرة الرزايا، عجلي : مسرعة ، ترن وتعول: ترفع صوتها بالبكاء، المهياف: السيئ التدبير، السوام: الماشية ، مجدعة ، سيئة الغذاء، السقبان: جمع سقب وهو ولد الناقة الصغير الذكر، بهل: الناقة التي لا صرار عليها ، جبأ: جبان، ألهى: أبخر ، مرب:ملازم، الخرق: المضطرب من الخوف، الهبق:الظليم، المكاء:نوع من الطير، الخالف: الناقه،دراية: المقيم في داره ، متغزل: يغازل، العل: بفتح العين القراد وهو حشرة صغيرة مثل البق ومن الرجال الضئيل الضعيف، دون: أقرب،ألف، :ضعيف، أعزل: لا سلاح معه، المحيار:المتحير، انتحت:اعترضت وأقبلت، الهوجل : الرجل الأحمق، الهمياء: الصحراء، هوجل : مقفرة.

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع وأبيض أصليت وصفراء عطبل
هتوف من الملس المتون يزينها رصائع قدنيطت إليها ومحمل
إذا زال عنها السهم حنت كأنها مرزأة عجلي ترن وتعول
ولست بمهياف يعشي سوامه مجدعة سقبانها وهي بهل
ولا جبأ أكهي مرب بعرسه يطالعها في شأنه كيف يفعل
ولا خرق هيق كأن فؤاده يظل به المكاء يعلو ويسفل
ولا خالف داريه متغزل يروح ويغدو داهنا يتكحل
ولست بعل شره دون خيره ألف إذا ما رعته أهتاج اعزل
ولست بمحيار الظلام إذا انتحت هدي الهوجل العسيف بهماء هوجل

وإذا كان الفقر الشديد ، والإحساس به من الدوافع التي دفعتهم إلي احتراف مهنة الصعلكة , فإن شعرهم لا يخلو من تصوير هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة التي ألقت بهم في المخاطر، والمهالك ،كي يدرءوا عن أنفسهم ذل الحاجة والجلوس خلف بيوت الأغنياء علي حد تعبير عروة بن الورد أثناء مخاطبته لزوجته بقوله : (١)

ذريني أطوف في البلاد لعلني أخليك أو أغنيك عن سوء محضر (٢)
فإن فاز سهم للمنية لم أكن جزوعا وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد لكم خلف أدبار البيوت ومنظر

(١) الأصمعيات للأصمعي. تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ،ص٤٣ مطبعة دار المعارف.

(٢) التخلية هنا : الطلاق وهي كناية عن قتله ، سوء المحضر : المسألة والحاجة، سهم الأولى: موته، وسهم الثانية : نجاته وغنمه ، أدبار :خلف.

وكذلك الأعلم الهذلي الذي دفعته الحاجة إلي الصعلكة فترك بيته، وأولاده الصغار بالعراء ،ثم راح يتذكرهم ،وهم يعانون آلام الوحدة والجوع الذي جعلهم يتطلعون إلي ما في أيدي الأقارب، فقال[1]

وذكرت أهلي بالعرا ء وحاجة الشعث التوالب[2]

المصرمين من التلا د اللامحين إلي الأقارب

ومن ثم فقد وجد الصعاليك في الغزو والإغارة للسلب والنهب السبيل الوحيد للغني لمن هو في مثل حالتهم ، ولذا نجد الشاعر عروة بن الورد يعبر عن هذا بقوله :[3]

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

وكذلك قوله : [4]

وما طالب الحاجات من كل وجهة من الناس إلا من أجد وشمرا

وكما برزت ذاتية الصعاليك أثناء حديثهم عن الدوافع التي دفعتهم إلي احتراف الصعلكة ، برزت أيضاً في ثنايا حديثهم عن " المراقب " أي المرتفعات العالية التي كانوا يتخذونها وسيلة للتربص بأعدائهم، وارتقابهم الفرصة الملائمة لمهاجمتهم، فها هو ذا أبو خراش يصف مرقبه بأنها في نتوء مشرف من الجبل كأنه حد الفأس يشرف علي طريق ضيق كأنه النفق وقد أقيم فوق هذا النتوء عرش يستظل المتربص تحته

(١) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، د/ عبدالحليم حفني ، ص١٨٨.
(٢) الشعث: الجحاش الصغار وأراد هنا أولاده.
(٣) ديوان عروة بن الورد ، ص٢٣، مطبعة دار صادر ، بيروت.
(٤) المرجع السابق، ص٤٤.

ويختفي فيه، عبر عن هذا بقوله :[1]

لست لمرة إن لم أوف مرقبة يبدو لي الحرث منها والمقاضيب[2]

في ذات ريد كذلق الفأس مشرفة طريقها سرب بالناس دعبوب

لم يبق من عرشها إلا دعامتها جذلان منهدم منها ومنصوب

كما تضمن شعرهم الحديث عن عدوهم ، وسرعة فرارهم من أعدائهم ، وكيف أعانهم العدو علي النجاة من أعدائهم كما هو واضح في قول تأبط شرا : [3]

لا شيء أسرع مني ليس ذا عذر وذا جناح بجنب الريد خفاق[4]

حتي نجوت ولما ينزعوا سلبي بواله من فيض الشد غيداق

وكذلك الأعلم الهذلي الذي أفصح لنا -من خلال شعره- عن فراره ومعه صاحبه الذي اصطبحه في إحدي مغامراته في بلاد كنانه،فقد وجد نفسه في مأزق عندما رأي القوم يطاردونه، وكانوا علي مقربة منه، فانتابه الفزع ،والهلع الذي أعجزه عن الرمي ،وحينذاك فلم تكن أمامه وسيلة للنجاة إلا الفرار، فحث صاحبه علي العدو حتي ينجوا معا كما هو واضح في قوله : [5]

(١) شرح أشعار الهذليين للسكري، تحقيق د/ عبد الستار فراج ومحمود محمد شاكر ٣/ ١٢٣٢، مطبعة المدني.
(٢) أوف: أشرف، المقاضيب: موضع القت، الريد: حرف نائئ من الجبل، الذلق، الحد: طريقها سرب، : أي يتابع الناس فيه دعبوب: موطؤ، جذلان : عودان.
(٣) ديوان تأبط شرا ، إعداد طلال حرب ص٤٩ مطبعة دار صادر، بيروت ، والمفضليات للضبي شرح الأنباري ص٨ نشر مكتبة الثقافة الدينية.
(٤) بذي عذر: يعني فرسا والعذر يصف خيلا الواحدة عذرة ، الريد الشمراخ الأعلي من الجبل، ذا جناح: جارح الجبل فهو أسرع طيرانا من جارح السهل، الواله: الذاهب العقل، الفيض: السريع، الغيداق، السريع الواسع.
(٥) شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٥.

ولما رأيت القوم بالعلياء دون قدي المناصب[1]

وقربت من فزع فلا أرمي ولا ودعت صاحب

يغزون صاحبهم بنا جهداً وأغري غير كاذب

أغري أبا وهب لسيـ ـجزهم ومدوا بالحلائب

ثم علل فراره بخشية القتل بسيوفهم التي اعتادت علي الفتك، فيصبح طعاماً سائغاً للذئاب،والضباع،والثعالب وغيرها من الحيوانات المتوحشة، والطيور الجارحة عبر هذا بقوله :[2]

وخشيت وقع ضريبة قد جربت كل التجارب[3]

فأكون صيدهم بها للذئب والضبع والسواغب

جزرا وللطير العرب ـة والذئاب وللثعالب

ونجر مجرية لها لحمي إلي أجر حواشب

ويشعر الصعاليك الكثير من النماذج الشعرية التي جاءت أحداثها مرتبطة بأشخاصهم ارتباطاً وثيقاً ، وظهرت فيها نزعتهم الذاتية ظهوراً واضحاً ، لأن " الصعلوك كان يجعل نفسه في شعره دائماً صلب الحديث، وكل ما يصفه، أو يتحدث عنه مشدوداً إلي شخصه بخيوط واضحة، وعلاقته بكل ما يتحدث بشأنه واضحة كل الوضوح، فهو لا

(١) القدي: القدر ، المناصب: الذراعي الذي يناصبك الرمي بمرفقك وترميه، قربت: قربت، فزع: فزعت، الصلاب: الصخرات يجري بعضها في إثر بعض.

(٢) شرح أشعار الهذليين للسكري ١/ ٢١٤

(٣) الضريبة: السجية، جزرا: قطعا، الطير العرب: النهمة علي اللحم دائما ، تجر: أي تشبع، الحواشب: المتضخمات البطون.

يتحدث عن شيء لذات هذا الشيء وإنما يتحدث عنه من حيث علاقته هو بهذا الشيء ،ومن ثم فقد جاءت ذاتيته ذاتية حية، ومتحركة، ذاتية واقعية معقولة في آن واحد، ذاتية متميزة محدودة لا تلتبس بغيرها،ولا تخضع لمذهب بعينه من مذاهب النقد،لأن طابعها لا يشبع في أدب آخر غير أدب الصعاليك[1]" .

ذاتية بعض شعراء الممالك العربية:

علي أطراف الجزيرة العربية مما يلي حدود الروم ، والفرس قامت إمارتا الغساسنة ، والمناذرة . وفي هاتين الإمارتين وجد العديد من الشعراء الجاهليين،منهم من كان مقيماً كعدي بن زيد ،ومنهم من كان وافداً، كحسان بن ثابت، والمتنخل اليشكري والمثقب العبدي. والنابغة الذبياني الذي توطدت العلاقة بينه ،وبين النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، حتي أصبح شاعره المفضل في فترة ملكه .

ويظل النابغة الذبياني يحيا حياة الترف . والدعة . ويغرف في صحاف الذهب، والفضة فترة منادمته لملوك الحيرة " المنذر الثالث، والرابع، والنعمان بن المنذر أبا قابوس [2] الذي سخط عليه ،وأخذ يلاحقه بتهديده . ووعيده أينما حل أو ارتحل .

وبسبب هذا الموقف العدائي راح الشاعر يشدو ببعض قصائده المعبرة عن خوفه، ورهبته، وطمعه في عفو أبي قابوس، وصفحه عنه، ولا

(١) شعر الصعاليك دراسة وتحليل د/ عبد الحليم حفني: ص٢٧٩، ٢٧٧.

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان : ترجمة د/ عبد الحليم النجار ١/ ٨٨ ، نشر دار المعارف.

يقوتنا أن الخوف والطمع لهما دور واضح في إثارة العاطفة التي تعد من مقومات النزعة الذاتية،ولذا ،فقد ارتفع الصوت الذاتي في بعض أشعار النابغة التي اتخذها وسيلة للدفاع عن نفسه عما أصابه من وشاية الواشين الذين كانوا سببا في انقطاع صلته الجسمية بالنعمان, ولكن صلته الروحية ظلت باقية في الماضي ، وذكرياته الجميلة في بلاط مملكته، ومن ثم فإن شاعرنا لم يأل جهداً في الدفاع عن نفسه ،ودرء التهم التي لحقت به من قبل خصومه، واستدرار عطف أبي قابوس ،واستمالة قلبه ،كما هو واضح في إحدي قصائده الاعتذارية التي قال فيها :(١)

أتاني -أبيت اللعن- أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع

مقالة أن قد قلت سوف أناله وذلك من تلقاء مثلك رائع

وكذلك قوله : (٢)

أتاني ـأبيت اللعن- أنك لمتني وتلك التي اهتم منها وأنصب(٣)

فبت كأن العائدات فرشـــتني هراسا به يعلي فراشي ويقشب

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغش وأكذب

فمعاني الأبيات السابقة تكشف لنا عن عاطفة النابغة الزبياني ،

(١) ديوان النابغة الذبيان، تحقيق محمد أبو الفضل ، ص٣٢ ، مطبعة دار المعارف.

(٢) المرجع السابق ،ص٧٢.

(٣) أبيت اللعن: أي أبيت أن تأتي أمرا تلعن عليه، تلك:أي تلك العلامة، النصب: العناء والمشقة، الهراس: الشوك، يقشب: يجدد ويتعاهد بالشوك أو يخالط، الريبة: الشك ، وراء الله ، أي ليس بعد يمين الله -عزوجل- للمرء مذهب، خيانة: أي أخان ودك وأكفر نعمتك، الواشي: النمام، أغش وأكذب: أي ذو غش وكذب.

ومشاعره الذاتية تجاه لوم النعمان ،وتهديده ووعيده ،وغير ذلك من الدوافع التي كانت سببا في تعبه ،ونصبه ،وزيادة سقمه ، وكثرة همومه التي أقضت مضجعه، وأسهدت جفنه فبات يتقلب علي فراشه،المصنوع من الشوك كما خيل إليه .

وفي موضع آخر يفصح لنا النابغة عن حالته النفسية ،ومعاناته الليلية - علي الرغم من وجوده في مكان آمن - إلا أنه بسبب ما وصل إلي مسامعه من وعد ،وعيد بات ليلة في أرق وقلق ، وكأنما حية رقشاء وثبت عليه ،ونظراً لسوء سمها فقد تحاشاها الراقون الذين خضعت لهم الأفاعي, والصلال علي حد تعبيره الوارد في قوله : (١)

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع(٢)

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

وكذلك قوله : (٣)

أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار علي زأر من الأسد (٤)

مهلا فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد

لا تقذفني بركن لا كفاء له وإن تأنفك الأعداء بالرفد

(١) المرجع السابق، ص٣٢.

(٢) في غير كنهه: في غير حقيقته ، راكس: واد ، الضواجع، منحني الوادي، ساورتني، وثبتني، ضئيلة ، دقيقة ، الرقشاء: المنقطة بسواد وبياض، ناقع : قاتل.

(٣) المرجع السابق، ص٢٥.

(٤) أوعدني : هددني، قرار: سكن ،مهلا: أي تثبت في أمري، أثمر: أكثر وأصلح، لا تقذفني: لا ترميني، تأنفك، اجتمعوا حولك كالآنافي، الرفد يترافدون عليك أي يتعاورون.

وبهذه النماذج الشعرية التي أتينا بها علي سبيل الاستشهاد فحسب، يتضح لنا كيف أشعلت عاطفته، وأثارت مشاعره سهام الوعد والوعيد، والتهديد، التي صوبت عليه من قبل النعمان بن المنذر؟ فراح يدافع عن نفسه،وينقذها من الخطر والهلاك الذي يلاحقها بهذه الاعتذاريات التي ارتفع فيها صوته الذاتي،فجاءت معبرة عن رهبته وشدة خوفه من بطش النعمان وسطوته راجياً عفوه، والصفح عنه، وإلا تحامته العرب فيصبح مثله كمثل البعير الأجرب عبر عن هذا بقوله : (١)

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلي الناس مطلي به القار أجرب(٢)

ومن شعراء الممالك العربية الذين برزت نزعتهم الذاتية في أشعارهم أيضاً " عدي بن زيد العبادي " شاعر الحيرة المشهور الذي وشي به الواشون عند النعمان بن المنذر ، فاستدعاه ثم وضعه في السجن فأنشد يقول :(٣)

ليت شعري عند الهمام ويأتيـ ـك بخبر الأنباء عطف السؤال(٤)

أين عنا أخطارنا المال والأنفـ ـس إذ ناهدوا ليوم المحال

ونضالي في جنبك الناس يرمو ن وأرمي وكلنا غير آلي

وفي موضع آخر نجد أحاسيسه الذاتية تظهر في شعوره بالليل،

(١) المرجع السابق، ص٧٣.
(٢) القار : الزفت.
(٣) الأغاني للأصفهاني ٢/ ١٠٢.
(٤) إخطار المال والنفس: بذلهما وجعلهما خطراً، المشاهدة في الحرب، المناهضة ، المحال: الكيد والمكر، آل : غير مقصر.

وطوله، وكثرة همومه التي لازمته في سجنه، فأسهدت جفنه ،وجعلته في سهر دائم عبر عنه في قوله : (١)

طال ذا الليل علينا واعتكر وكأني ناذر الصبح سمر(٢)

من نجي الهم عندي ثاويا فوق ما أعلن منه وأسر

وكأن الليل فيه مثله ولقد ما ظن بالليل القصر

لم أغمض طوله حتي انقضي أتمني لو أن الصبح حشر

غير ما عشق ولكن طارق خلس لنوم وأجداني السهر

ويشعر عدي بن زيد بجبروت السجن ، وآلامه ، فيستغيث بمن يبلغ النعمان بن المنذر عن حالته النفسية والجسدية , وشدة معاناته من السلاسل، والأغلال التي أطبقت علي يديه، ورجليه، وعنقه ،وكذلك حرمانه مما كان يتمتع به - قبل سجنه- من مال وجاه،وفقدانه لأحبائه، وأخلائه ، وممن يؤازره في كربه إلا نساؤه اللاتي لا يكففن عن البكاء ، والنياح لما آلت عليه حالته كما هو واضح في قوله : (٣)

ألا من مبلغ النعمان عني وقد تهدي النصيحة بالمغيب (٤)

أحظي كأن سلسلة وقيداً وغلا والبيان لدي الطبيب

(١) عدي بن زيد الشاعر المبتكر للهاشمي، ص١١٩، مطبعة دار البشائر الإسلامية.
(٢) حشر الصبح ، طلع وفلق.
(٣) ديوان عدى بن زيد العبادى تحقيق محمد صابر المعيد ،ص٣٧ ،مطبعة بغداد ١٩٦٥، والقصيدة مطلعها: أرقت لمكفهر بات فيه ... بوارق برتقين رؤوس شيب
(٤) المغيب : كل ما غاب عنك ، الغل: طوق من حديد أو جلد يجعل في اليد أو في العنق، الرغائب، ما يرغب فيه ، الحريب، الذي سلب ماله ، الشن: القربة الخلق، الريب: من رب الأمر أصلحه.

وهم أضحوا لديك كما أرادوا وقد ترجي الرغائب من مثيب
أتاك بأنني قد طال حبسي فلم تسأل بمسجون حريب
ومالي ناصر إلا نساء أرامل قد هلكن من النحيب
يحدرن الدموع علي عدي كشن خانه خرز الريب

وفي موضع آخر نجده يقول : (١)

أبلغ النعمان عني مألكا أنه قد طال حبسي وانتظاري(٢)
لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

وبديوان عدي بعض القصائد ، والمقطعات الشعرية الأخري (٣) التي جاءت معانيها معبرة عن مشاعره وأحاسيسه الذاتية تجاه واقعه المؤلم, ومكابدته لآلام الأسر والفراق, وشعوره بالذلة بعد العزة، وبالضعف بعد القوة ،وغير ذلك من نزعات نفسية جعلته يطلق صرخاته ،ويستغيث، ويتوسل من أجل أن يحظي بعفو النعمان، ويخرج من سجنه الذي ظل فيه حتي قتل (٤) .

الذاتية الموضوعية في رائية حاتم الطائي:

لم تقتصر النزعة الذاتية في شعر بعض الشعراء الجاهليين علي التعبير عن مشاعرهم ، وأحاسيسهم الفردية الخاصة بهم فحسب، وإنما

(١) ديوانه ص ٩٣ والقصيدة مطلعها :
أبصرت عيني عشاء ضوء نار من سناها عرف هندى وغار
(٢) مالكا : رسالة ، الشرق ، الغصة شرق الرجل أي غاص، الإعتصار : الالتجاء.
(٣) انظر ديوانه ص٣٤، ٥٦، ٥٩، ١٢٣،
(٤) الأغاني للأصفهاني ٢/ ٩٩ بتصرف.

أفصحت لنا بعض قصائدهم الشعرية عن مواقفهم الذاتية تجاه بعض القضايا الاجتماعية التي استجابت لها أنفسهم ،واقتنعت بها عقولهم , واستراحت لها أفئدتهم حتي صارت جزءاً من كيانهم الشخصي .

فمن هذه القضايا الكرم، والعفة، والوفاء، وحماية الجار, وغير ذلك من القضايا التي آزرها المجتمع القبلي، وحرص علي ذيوعها : وانتشارها،والتغني بها ،والإفراط في تصويرها، فكان ذلك سبباً في تناغم حس الشاعر الفردي مع مطالب قبيلته .

وعلي الرغم من أن قضية الكرم من أبرز الشمائل التي تغني بها العديد من شعراء الجاهلية , إلا أن الشعر الجاهلي لم يعرف شاعراً استجابت نفسه لهذه الفضيلة ،وفلسف حياته كلها من خلالها مثل : "حاتم الطائي" الذي سخر موهبته الذاتية لتأصيلها ونشر مآثرها , ليس من أجل إرضاء قبيلته فحسب ،وإنما لإرضاء نفسه ، وتضخيم ذاته التي ضرب بها المثل فقيل : " أكرم من حاتم الطائي "(١) .

وها هو ذا يرتفع صوته الذاتي في معرض فخره بهذه الصفة متخذاً ذاته محوراً تدور حوله هذه الصفة، وما لا زمها من صفات أخري،كإغاثته للملهوف، ونجدته للمستغيث، وحمايته لكل من يطلب منه حق الإجارة. وغير ذلك من الصفات التي أودعها في قصيدته التي استهلها بقوله :(٢)

(١) مجمع الأمثال للميداني ، تحقيق محمد أبو الفضل ٢/ ٧٥.
(٢) ديوان حاتم الطائي، ص ٥٠، طبع بيروت.

أما وي[1] قد طال التجنب والهجر
وقد عذرتني من طلابكم العذر[2]

أما وي إن المال غاد ورائح
ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أما وي إني لا أقول لسائل
إذا جاء يوماً : حل في مالنا نزر

أما وي إما مانع فمبين
وإما عطاء لا ينهنهه الزجر

أما وي ما يغني الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

إذا أنا دلاني الذين أحبهم
لمملحودة زلج جوانبها قبر

وراحوا عجالا ينفضون أكفهم
يقولون : قد دمي أناملنا الحفر

أماوي إن يصبح صداي بقفرة
من الأرض لا ماء لدي ولا خمر

ترى أن ما أهلكت لم يك ضرني
وإن يدي ، مما بخلت به صفر

أما وي إني رب واحد أمه
أجرت فلا قتل عليه ولا أسر

وقد علم الأقوام لو أن حاتما
أراد ثراء المال كان له وفر

وإني لا ألو بمال صنيعة
فأولاه زاد وآخره ذخر

يفك به العاني ويؤكل طيباً
وما إن تعريه القداح ولا الخمر

ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتي
شهوداً وقد أودي بإخوته الدهر

فنبئنا زمان بالتصعلك والغنى
كما الدهر في أيامه العسر واليسر

لبسنا صروف الدهر لينا وغاظة
وكلا سقاناه بكأسيهما الدهر

فما زادنا بغيا على ذي قرابة
غنانا ولا أزري بأحسابنا الفقر

فلما عصيت العاذلات وساطت
على مصطفي مالي أناملي العشر

وما ضر جاراً يا ابنة العم فاعلمي
يجاورني الا يكون له ستر

يعينني عن جارات قومي غفلة
وفي السمع مني عن حديثهم وقر

---

(١) هي : ماوية بنت عفزر وكانت ملكة تتزوج من أرادت وأنها بعثت غلمانا لها وأمرتهم أن يأتوها بأوسم من يجدونه بالحيرة فجاءوها بحاتم الطائي . انظر الأغاني للأصفهاني ١٧ / ٢٩٢ .

(٢) الطلاب : طلب صاحبه والسعي خلفها حرصا على الوصول إليها ، العذر : الأعذار وهي المبررات التي يراها دائما لاستمرار سعيه لتبحث عن ماويه، نزر: النزر القليل من كل شئ ونزر عطاء فقلله، ينهنهه الزجر: النهنهة الكف نهنهت فلانا إذا زجرته فنهنه، أي كفه، تكشف الحشرجة ، أي حشرجة الروح عند الموت، الملحودة: القبر، الزلج: الملساء التي لا تثبت فيها القدم ، قبر : جمع القبر والقبراء هي التي قبرها التراب، وقبي: أسال الدماء من البدن صاف: نقي.

لقد استهل شاعرنا قصيدته بخطابه لزوجته أو صاحبته التي لامته ، وعذلته على إسرافه في بذل المال ،فقابل لومها وعذلها بالإصرار على الإنفاق، والإفراط في العطاء لكل سائل قصد بابه، ورحل بفنائه، فهو جاهز بأن يحقق له أمانيه بدون جهد ، أو إراقة ماء وجهه عند السؤال .

ولكي يكشف لنا حاتم عن فلسفته الخاصة بكرمه الذي كرس له حياته ،وجعله سمة بارزة ،ومفخرة يباهي به ،فقد وهب ماله لإغاثة الملهوف، ونجدة المستغيث، وفك أسر الأسير، وغير ذلك من الوجوه التي تتطلب بذل المال، وتحقق له ذخراً باقياً بعد الممات .

ولم تقف ذاتية حاتم بمواقفها تجاه صفة الكرم فحسب، وإنما سجل بعض الصفات الأخرى كصفة الظلم الذي رفضه ، ورفض المبادرة به ، فلا تستريح نفسه ولا يهدأ جسده إذا وقع الظلم عليه، أو على غيره ،فحينئذ يقف موقف الرافض المقاوم .

كما يأبى على نفسه أن يكون قريناً للغرور، أو واحداً من أهله، فلا يشمت، أو يعادي من جار عليه الزمن ،لأنه لا يضمن نفسه من أحداث الزمن وخطوبه ، ثم نجده يرتقي بإنسانيته التي أظهرت لنا سلوكه الشخصي الذي سلكه تجاه جيرانه الذين غض الطرف عنهم ، وحفظ لهم حقوقهم ، وبادر بحسن جوارهم بالتقدير والاحترام المتبادل بينه وبينهم .

وإذا كان الغرض الأساسي لهذه القصيدة هو الكرم ، فإن حاتماً لم ينهج نهج غيره من الشعراء الجاهليين الذين تغنوا بهذه القصيدة وبالغوا في إرضاء ممدوحهم من أجل أن يحظوا بقدر كبير من عطائهم ورفدهم .

أما حاتم فعلي الرغم من إفراطه في البذل وسخائه في العطاء، إلا أنه لم يدع فرصة للغرور لكي يسيطر علي نفسه، ويتحكم في نزعاته،ويدفعها إلي المبالغة والإفراط في الافتخار بكرمه ، وكثرة بذله لأنه كان يتذكر الموت ومنازله، ويتخيل نفسه في قبره، وقد قام الأحباب والرفاق بوداعه بعد أن هالوا عليه التراب ،وتركوه وحيداً لا أنيس معه ولا جليس، فلم يبق له بعد موته إلا شمائله الطية التي جبل عليها خلال حياته .

وبهذا فقد كشفت لنا هذه الرائية وغيرها من القصائد الأخري[1]عن موقف حاتم الطائي تجاه صفة الكرم التي جعل من ذاته محوراً تدور حوله هذه الصفة وغيرها من الشمائل الأخري التي اقتنع بها، وأصر علي إضفائها علي نفسه لما احتوت عليه من ملامح مثالية وجدت قبولا, وارتياحاً لدي أبناء قبيلته ومن ثم ،فقد توافق حسه الفردي مع الحس الاجتماعي القبلي، فكان ذلك سببا في تأصيل رؤيته الحاتمية التي اكتسبها ممن فطمته علي هذه الصفة النبيلة ، كما قالت بعض الروايات : " إن أمه عنبة بنت عفيف بن عمرو بن امرئ القيس بن عدي كانت في الجود بمنزلة حاتم لا تدخر شيئاً، ولا سألها أحد شيئاً، فتمنعه ،وكانت ذات يسار، وكانت أسخي الناس واقراهم للضيف " [2].

(١) انظر ديانه ص ٤٠ وقصيدته التى مطلعها:
وعاذلة هبت بليل تلومنى ... وقد غاب عيوق الثريا فغردا
وكذلك قوله: مهلا نوار أقلى اللوم والعذلا ... ولا تقولى لشئ فات ما فعلا ديوانه : ص ٧٣
وانظر أيضا : شعراء النصرانية ص١٠٠، ١١٢، ١٢٠.
(٢) شعر النصرانية . لويس شيخو ص٩٨.

ومن ثم فقد كان حاتم " جواداً يشبه شعره جوده، ويصدق قوله فعله , وكان حكيماً، حيثما نزل عرف منزله، وإذا سئل وهب،وكان إذا أهل الشهر الأصم " وهو رجب " الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية ينحر في كل يوم عشرا من الإبل فأطعم الناس واجتمعوا إليه " [1].

كما كانت " له قدور عظام بفنائه لا تنزل عن الأثافي [2] وفي هذا دلالة واضحة علي استمراريته في العطاء والكرم لأهله ولغير أهله . رغبة في تأصيل هذه الخصلة ، وغيرها من الخصال الحميدة ،والفضائل السامية التي أعلت قدره، ورفعت شأنه ، وكانت سبباً في شهرته ،وذيوع صيته .

وبهذه النماذج الشعرية المتنوعة لعلنا نكون قد أسهمنا في الرد علي قول القائل : بأن الشعر الجاهلي شعر جماعي اختفت منه النزعة الذتية وحلت محلها النزعة القبلية ،علما بأن ما أتينا به هنا كان علي سبيل الاستشهاد فقط , فهناك بدواوين الشعراء الجاهليين ، ومصادر شعرهم العديد من القصائد ، والمقطعات الشعرية الأخري لهؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم في ثنايا هذا البحث ،ولشعراء آخرين لم نذكرهم ، كعلقمة الفحل, والمرقش الأكبر، والمرقش الأصغر ، وقيس بن الحدادية ، وثعلبة بن صفير ، وعبد قيس بن خفاف ، وغيرهم من الشعراء الذي صدر شعرهم معبراً عن عواطفهم الفردية , ومشاعرهم الذاتية دون قيد أو شرط يحول بينهم , وبين ارتفاع صوتهم الفردي .

(١) الأغانى للأصفهاني ١٧/ ٢٨٠.
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٢٥٧.

الخصائص الفنية في شعر النزعة الذاتية

من حيث الألفاظ والمعاني:

نظرا لأن ذات الشاعر هي المحور الذي يدور حوله شعره، فقد جاءت ألفاظهم معبرة عن مشاعرهم، وانفعالاتهم الخاصة بذواتهم، وبما أن اللفظ في العمل الفني يعبر عن نفس الشاعر بكل ما تراه وتشعر به فإن "أول ما يلفتنا في نصوص الشعر ألفاظه، وهي ليست ألفاظاً مجردة الدلالة يدل بها الشعراء على أشياء حسية من واقعهم الخارجي، فإنهم لا يعبرون عن هذا الواقع ومسمياته الحقيقية، وإنما يعبرون عن واقعهم النفسي، وما تختلج به نفوسهم من مشاعر وأحاسيس [1].

وهذا ما لاحظناه في بعض النماذج الشعرية السابقة، التي صدرت عن بعض الشعراء الجاهليين الذين جعلوا همهم الأكبر في التعبير عما يريدون بألفاظ اتسمت بالسهولة، والوضوح، والإلف تارة، وبالجزالة والصعوبة، والغرابة تارة أخرى، وإن كانت غرابتها ليست في ذاتها، وإنما في استعمالها وتداولها وكما هو معروف لدينا أن اللفظ يكون سهلا ومفهوم المدلول إذا استعملناه، ويكون صعباً وغريباً إذا لم نستعمله، ولم نتداوله، كما أن غموض اللفظ قد يذلله ترابطه مع الكلمات الأخرى المكونة للبيت الشعري "فمع أن لكل كلمة دلالتها الاجتماعية المستقلة، نلاحظ أنه حين تتركب الجملة من عدة كلمات تفقد كل كلمة موقتاً معينا من هذه الجملة، بحيث ترتبط الكلمات بعضها ببعض على

(1) في النقد الأدبي د. شوقي ضيف ص ١٢٩، دار المعارف.

حسب قوانين لغوية خاصة بالنظام النحوي، وإنه توجد في كل كلمة بقية معينة [2].

والمقصود هنا بالدلالة الاجتماعية الدلالة المعجمية، وقد أشار إلى هذا صاحب دلالة الألفاظ بقوله: "ولكن المعاجم قليلاً، وجزئياً تعد من الدلالة الاجتماعية للكلمات عدداً أساسياً، ويكاد يوجه إليها كل عنايتها، فلا غرابة إذن ألا يفرق بعض اللغويين بين الدلالة المعجمية والدلالة الاجتماعية، وهذا ما أرجعناه أو نسبناه نحن فكرنا الدلالة المعجمية لا تعني بها سوى الدلالة الاجتماعية [3].

ولكي ندلل على صحة ما سبق سوف نأتي ببعض الألفاظ الواردة في الشعر الذاتي، والتي اشتهرت فيها السهولة والوضوح مثل: الدار، الحبيب، أبيات الخيال، قرار، الظلم، المنايا، الصبر، الناس، الأكارم، وغير ذلك من الألفاظ السهلة التي يمكن ملاحظتها في النماذج الشعرية السابقة.

وكما تضمن شعر النزعة الذاتية مثل هذه الألفاظ السهلة، تضمن أيضاً بعض الألفاظ الشعرية الوعرة التي لا يمكن الوقوف على معانيها إلا بالرجوع إلى بعض المعاجم اللغوية، وذلك مثل:

"القطيع، الدلاح، المتعسف، الكواكب، المعاقب، المعوج، المتسكب، تائك ....."

هذه الألفاظ وأمثالها توارت بدورها في شعر النزعة

(2) دلالة الألفاظ د. إبراهيم أنيس، نقلا عن د. شوقي ضيف، البحث الأدبي.
(3) المرجع السابق نفس الصفحة.

دلالات صوتية , وإيحاءات معبرة عن الأحداث التي أرادها الشاعر في شعره، فمثلاً كلمة " تستك "-الواردة في شعر النابغة الذبياني- معناها : صمت ، وضاقت وكأن شدة وقع اللوم علي الشاعر كان سبباً في إصابة أذنه بالصمم والضيق ،كما أن أصوات الحروف المنبعثة من هذه اللفظة عبرت عن المعني المقصود منها فالتاء صوت من أصوات الشدة ،وكذلك الكاف [1]بجانب هذا ما أحدثه تكرار التاء من مضاعفة الإحساس بشدة اللوم ومدي تأثيره علي هذه الجارحة .

كما جاءت ألفاظ الشعر الذاتي مناسبة للأغراض الواردة في شعر شعرائه , ولقد أشار إلي هذا القاضي الجرجاني بقوله : " أري لك أن تقسم الألفاظ علي رتب المعاني ،فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك بل ترتب كلا مرتبته وتوفيه حقه فتلطف إذا تغزلت وتفخم إذا افتخرت ... " [2].

ومن خلال قراءتك للأبيات التي خصصها بعض شعراء النزعة الذاتية للفخر بذواتهم , وكذلك الأبيات التي خصصت للعتاب ،وغيره من الأغراض نجد الفرق واضحاً فمع الفخر نجد الفخامة والجزالة،وتشعر بالجهارة حتي تكاد تسمع رنين الألفاظ تخرق مسامعك ، ولك أن تدرك هذا في فخر عنترة بنفسه حيث يقول :

---

(١) الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ص٢٥ ، مطبعة الأنجلو المصرية.

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني تحقيق محمد أبو الفضل ، وعلي محمد البجاوي ص٢٤، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

إني امرؤ من خير عبس منصبا

شطري وأحمي سائري بالمنصل

وكذلك في فخر طرفة بشجاعته وبسالته الماثلة في قوله :

إذا القوم قالوا من فتي خلت أنني

عنيت فلم أبسل ولم أتبلد

أحلت عليها بالقطيع فأجذمت

وقد خب آل الأمعز المتوقد

هذا بخلاف العتاب الذي أشعرتنا ألفاظه الرقيقة بالنغمة الحزينة، رغبة في استدرار العطف والصفح كما هو واضح في قول عدي بن زيد :

أبلغ النعمان عني مألكاً أنه قد طال حبسي وانتظاري

وكذلك النابغة الذي خاطب النعمان بقوله :

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب

وتزداد الألفاظ رقة , وعذوبة , ونعومة في غزل بعض الشعراء بمحبوباتهم , وهذا ما لاحظناه في غزل عنترة بن شداد بابنة عمه "عبلة" التي خاطبها بقوله

إن طيف الخيال يا عبل يشفي ويداوي به فؤادي الكئيب

إلي غير ذلك من أبيات النسيب والغزل -وبخاصة في بعض المقدمات -التي أوحت ألفاظها بنبضات قلوب الشعراء , وتحيبهم وعويلهم ليس هذا فحسب ،بل جعلتنا نتخيلهم وهم يذرفون العبرات

ويسكبون الدموع , ويظهرون حسرتهم، وحزنهم ،وأساهم علي الأيام الجميلة التي عاشوها مع محبوباتهم قبل الرحيل .

أما المعاني فقد جاءت معبرة عما يجيش في صدور شعراء النزعة الذاتية من مشاعر وأحاسيس خاصة بذواتهم , وهذا ما لاحظناه في النماذج الشعرية التي أتينا بها علي سبيل الاستشهاد بداية من المقدمة التي تعد بمثابة القسم الذاتي في القصيدة الجاهلية، وذلك كمقدمة امرئ القيس الزاخرة بشحنته العاطفية التي وجدت سبيلا كافياً إلي الإسقاط النفسي علي العالم الخارجي،فالديار خلت من أهلها ، ولم يبق منها إلا آثرها الشاخصة التي ظلت تقاوم عوادي الزمن ،وأيدي البلي ،وفي تلك اللحظات يسترجع شاعرنا شريط ذكرياته الماضية، فتثور عاطفته ويشتد به الشوق ويعصف به الأسي والحزن, فيطلب من صاحبه أو صاحبيه أن يشاركاه الوقوف كما وقف ،والبكاء كما بكي ، فلعل البكاء يخفف أحزانه ،وآلامه التي ألمت به إثر رؤيته لما آلت إليه الديار بعد رحيل الأحبة عنها .

وفي موضع آخر من شعره يتجاوز المقدمة الطللية الحزينة،وينطلق إلي عالم الغزل الذي التقت فيه مقاييس الجمال مع انفعالاته , وعواطفه إزاء عالم المرأة الذي أثاره، ودفعه إلي الإفصاح عن مسلكه الذي ارتضاه لنفسه وفي جانب كبير من حياته المليئة بالعديد من مغامراته اللاهية،كهذه المغامرة التي أفصحت معانيها عن مقدرته , ودهائه علي الوصول إلي تلك الفتاة المخدرة المخدومة المصونة بحراسها الواقفين علي باب

خبائها , ثم يأتي هذا البطل الغزلي , وبراعة حيلته يتمكن من اختراق حواجزها ، وطرح عواطفه من خلال الحوار الذي أداره معها فتحقق بهذا ذاته، ولذته، ونشوته التي لاتقل شأنا -في هذا المشهد الغزلي - عن نشوة السكر التي كان يجدها في كأس الخمر ومتعة السكر .

والمقدمة الغزلية لا تقل معانيها عن المقدمة الطللية في التعبير عن نوازع النفس ومكنوناتها , ويتضح لنا هذا في مقدمة الحادرة التي استهلها بالحديث عن صاحبته " سمية " تلك المرأة التي رحلت عنه مبكرة , وعاجلته بالفراق،فراح يكرر الزمن ، واللحظات التي مني فيها بالفراق، وكأنه يفرغ في هذا التكرار كثير من انفعالاته النفسية المتوترة ، وينخذه وسيلة للتخلص عما ألم به من مشاعر الأسي والحزن ، ومن ثم فقد دفعه الشغوف بها إلي البحث عنها ،وعند لقيتها أمر نفسه أن تأخذ حظها من التمتع بمحاسنها , كما أشعرتنا معانيه الواردة في قوله : " وتصدقت حتي استبنك " بالمغالبة بين نفسه التي تأبي أن تكون سبية للهوي ،وبين محاسنها الخلابة، ولكن هذه المغالبة لم تمكث طويلا, فسرعان ما سقط شاعرنا أسيراً في محاسنها التي تتمثل في عينيها الحوراوين،وطرفها الفاتر المتكسر, وعنقها الأغر المشرق المضيء ،وإحساسه- عند محادثتها- برقة شعورها، وابتسامتها الحلوة التي تجري علي فمها العذب إلي غير ذلك من الشمائل التي أودعها الشاعر في أبياته الغزلية السابقة .

وبانتقالنا من معاني الاستهلال إلي المعاني الواردة في شعر بعض شعراء النزعة الذاتية ، كعنترة ابن شداد نجده يتخذ شعره وسيلة لإسقاط

تجاربه الذاتية التي عايشها في حياته , وذلك من خلال التعامل مع " الأنا " وضميرها المفرد من أجل تحقيق رغبات تلك " الذات" الجامحة في إثبات وجودها , والانتصار لقضيتها مهما صادفت من صعوبات .

ومن ثم ،فقد كشفت لنا معانيه الواردة في بعض أشعاره عن أزمته الاجتماعية التي انفرجت بفروسيته المتميزة , والتي كانت سبباً في تحريره من جهة، وبداية شقائه في عالم المراة من جهة أخري، فعلي الرغم من شجاعته، وبسالته ، إلا أن عبوديته ظلت حاجزاً يحول بينه وبين تحقيق آماله التي كان ينشدها تجاه ابنة عمه " عبلة " ولعل هذا كان سبباً في حرصه الشديد علي الاحتفاظ ببطولته ، وشجاعته الفائقة التي كانت موضع فخره في كثير من أشعاره ،وهذا ما لمسناه في بعض معاني شعره التي أبرزت قوته وبسالته في ساحة الحرب، حيث ضجيج القتال , وصيحات الأبطال , وإصراره علي هزيمة خصمه، وتصوير نتائج المعركة، وآثارها الإيجابية في نفسه, ونفوس قومه ،ليس هذا فحسب ، وإنما نراه يمزج لوحته الحربية بلوحة الغزل ، وذلك أثناء مخاطبته لمحبوبته عبلة ، ولفت أنظارها لبسالته القتالية تارة ،وتخيله لبريق ثغرها في لمعان السيوف تارة أخري .

أما طرفة بن العبد فقد أفادتنا بعض معاني شعره بما وقع عليه من ظلم دفعه إلي التمرد ، والثورة علي الأعراف القبلية ، والإسراف المطلق في لذته ومتعته ، وتماديه في اللهو والمجون مع ندمائه الذين نعتهم بإشراق وجوههم وتلألؤها، تسقيهم كئوس الخمر ساقية

رقيقة لطيفة عذبة الصوت إلي غير ذلك من ملامح الجمال التي خلعها علي تلك الساقية أثناء تغزله بها .

كما عبرت معانيه الواردة في مشهده الحزين عن حياته الخاصة التي ارتضاها لنفسه ، فبإدمانه الخمر أنفق الطريف والتالد من ماله، ونفر منه، بل نبذه كل أبناء عشيرته ، وهكذا أصبحت معاني شعره التي صدرت عن ذاته محصورة في الخمر ،والغزل ، والفخر ببعض الشمائل التي جبل عليها، كالشجاعة ، والبطولة ، والكرم , وغيره من الصفات التي ترضي وجدانه ، ومشاعره الذاتية ، وتشبع أحاسيسه الخاصة بنفسه .

وإذا كان صعاليك العصر الجاهلي قد رفضوا الانتماء إلي القبيلة , واتخذوا فنهم وسيلة للتعبير عن منهج حياتهم ،فإن معانيهم الشعرية أبرزت تمردهم،ورفضهم للعقدين القبلي والفني ، وكشفت لنا عن مبادئ سلوكهم ،ومواهبهم الذاتية , ومقوماتهم الشخصية سواء من الناحية الجثمانية، أم النفسية، أم العقلية .

وتطالعنا بعض أشعارهم التي صورت قوتهم الجسدية وقدرتهم علي العدو كما اتضح لنا في قول الأعلم الهذلي : " وفريت من فزع ... " وكذلك في قول تأبط شرا : " لا شيء أسرع مني ذا عذر ... " ثم علل " الأعلم " فراره : خوفاً من القتل ، فيصبح حينذاك طعاماً للذئاب والضباع : والثعالب، وغيرها ، كما أعانتهم قوتهم علي ارتقاء المراقب ، لكي يترصدوا فيها ضحاياهم أخبرنا بهذا أبو خراش في قوله : " لست لمرة إن لم أوف مرقبة ..... " فالمرقبة بحكم موقعها في قمة من الجبل نائئة

مثلها ،كمثل حد الفأس ،خالية من كل شيء إلا بقايا من أعواد عرشها، وكأن تمزق هذه المرقبة يعكس اضطراب حياة أبي خراش، وتمزقه النفسي، ليس هذا فحسب ، بل جاءت بعض معانيهم تكشف لنا ما كان يتميز به بعضهم من قوة الإرادة , والقدرة علي التحمل، وصلابة العزيمة، وغير ذلك من النواحي النفسية التي استطعنا الوقوف عليها من خلال شعر الشنفري الأزدي الذي أعلن سخطه ،ونفوره من المجتمع البشري، وراح يستعيض عن كل هذا برفقة من نمط غريب، كالوحوش،والضباع ، والسباع، وغيرها من الحيوانات المتوحشة .

ولكي يساير مجتمعه الجديد لابد وأن يكون متشحا ببعض المقومات التي تعينه علي الاستمرار في مسايرة هذه الحياة الصعبة المليئة بالمخاطر ، والمهالك، وهذا ما أشار إليه في قوله : " ثلاثة أصحاب ، فؤاد مشيع , وأبيض أصليت ، وصفراء عيطل ... " كما نفي عن نفسه الليونة , والحماقة، والجبن ،والضعف ، وغير ذلك من الصفات التي لا تتلاءم مع الصعاليك بصفة عامة , والشنفري بصفة خاصة الذي اتصف بحدة الذكاء , وحسن التصرف في المواقف المختلفة، وحسن التخلص ، والاحتيال للخروج من المآزق ، وغير ذلك من السمات العقلية حتي قيل : إنه كان يضرب به المثل في الحذق والدهاء [1].

وبهذا ، فإن اللفظ في العمل الفني يعبر عن النفس الشاعرة بكل ما تسراه , أو تشعر به ، وهذا ما ألفناه في الألفاظ الواردة في الشعر الذاتي

(١) شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ١/ ١٨٧.

والتي من خلال تأملي بها , وتذوقي لمضمونها وجدتها تحمل فوق معناها فيضاً ذاخراً من الإيحاء ، والإشعاع الأدبي كما نوع شعراء الذاتية في ألفاظهم بين الجزالة ، والرقة كما يقتضي بذلك الغرض الذي صاغوا فيه شعرهم .

أما معانيهم :فقد جاءت معبرة عما يكمن في نفوسهم من مشاعر وأحاسيس، وذلك لأنها صدرت عن ذواتهم، واندفعت من واقعهم النفسي الذي اتسم بالصدق والحيوية ، وعبرت عن تجاربهم الذاتية أصدق تعبير .

من حيث الأساليب:

لكل شاعر من الشعراء طريقته الخاصة التي يصوغ فيها أفكاره، ويفصح بها عما يجول في نفسه من عواطف وانفعالات ، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون بقوله : " لكل فن من الكلام أساليب تختص به، وتوجد فيه علي أنحاء مختلفة ،فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول ... , ويكون باستدعاء الصحب علي الطلل .. ، أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين ... , أو بالدعاء ... , وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام , ومذاهبه ،وتنتظم التراكيب فيه بالجمل إنشائية وخبرية ، واسمية وفعلية ،،متفقة وغير متفقة، مفصولة وموصولة ، علي ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي "[1].

فإن ابن خلدون -في قوله السابق - يري أن الأساليب تختلف

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي ٣/ ١٣٠١، نهضة مصر «بتصرف».

باختلاف الأغراض الشعرية ،وأن الفن الواحد من الكلام له أساليب تختص به ، وتوجد فيه علي أنحاء مختلفة .

فإذا ما طبقنا هذا علي النماذج الشعرية السابقة لوجدنا ألواناً من الأساليب الخبرية التي تنوعت مقاصدها ، كالتعبير عن الأسي والحزن، والإحساس بالظلم وآثاره، والفخر بالبطولة والشجاعة ، واستدرار العفو والصفح ... وكذلك ألواناً من الأساليب الإنشائية التي "تعد من صور الكلام الهادية إلي نفوس تمور في داخلها حاجات ملحة"(١)وذلك كالاستفهام الوارد في قول عدي بن زيد : " أحظي كان سلسلة وقيدا ... " فتأمل كيف أبرز الاستفهام بالهمزة حالة الشاعر النفسية , ومدي توتره , وانفعاله , وإنكاره لما آلت إليه حالته .

وكذلك من الأساليب الإنشائية أسلوب النداء بالهمزة كقول حاتم الطائي: " أماوي قد طال التجنب والهجر ... " فقد قال "أماوي " ولم يقل " أماوية " وهذا الحذف يسميه أهل اللغة الترخيم لأن الاسم بعد قطع أخره يكون المتكلم قد قصد به الاختصاص بالحب والحنان ،وبهذا فإن اجتماع الترخيم والنداء بالهمزة قد أضفي علي هذا الاسم مزيداً من القرب والرشاقة واللطف .

كما استخدم بعض الشعراء أسلوب الشرط كقول عروة بن الورد " فإن فاز سهم للمنية لم أكن جزوعا ... " فجعل فوز السهم واقع في أسلوب الشرط الذي هو للمستقبل ، ثم ذكر من أدوات الشرط "أن" وهي

(١) قراءة في الأدب القديم د/ محمد أبو موسى، ص ١٩٠.

كما يدل تتبعها في الأساليب تأتي في الشرط المشكوك في وقوعه. ولذا نجد الشاعر ساق الفوز في هذا الاسلوب الدال علي الشك. وهذا بخلاف " إذا " الشرطية الواردة في قول طرفة بن العبد : " إذا القوم قالوا من فتي خلت أنني عنيت ... " وكقول عنترة : " وإذا الكتيبة أحجمت ونلاحظ ... " فهنا يكون الجواب ثابتاً ومحقق الوقوع.

ومن الأساليب الإنشائية أيضاً الأمر الوارد في قول النابغة الذبياني : " فلا تتركني بالوعيد .. " فهذا الأمر خرج من معناه الحقيقي إلي المعني المجازي الدال علي الترجي والاستعطاف ،وكذلك النفي الوارد في قول طرفة : " ولست بحلال التلاع .. " وفي قول الشنفري الأزدي : "ولست بمهياف -ولست بعل - ولست بمحيار ... " إلي غير ذلك من أساليب النفي التي قصد بها إثبات ما تتصف به ذواتهم من فضائل جاءت في عكس هذه الصفات الواردة في ثنايا أبياتهم الشعرية .

كما جنح بعض شعراء النزعة الذاتية إلي الحكاية ، واستخدام الألفاظ التي تناسب الحوار مثل : تقول _ وقلت ، وقالت ، وكذلك استخدام الأفعال المضارعة مثل : يلحقو - يفر - أنال - يزيها - يطالها ، وغير ذلك من أفعال المضارعة التي تفيد تجدد الحدث ، واستمراريته في نفوس القارئين والسامعين ، وكذلك استخدام بعضهم الأفعال الدالة مثل : ذكرتك - نأح شجاني - وقد حب سوقد طال ... فهذه الأفعال ومثلها قصد بها استحضار الحدث الماضي وتثبيته ثم يأتي "قد" التي تفيد التحقيق لتؤكد حصول الفعل وحدوثه .

كما استخدم بعضهم أيضاً أسلوب التوكيد كما هو واضح في قول حاتم الطائي " أما وي إني لا أقول لسائل ... " فتأمل كيف قام هذا البناء علي أسلوب التوكيد الدال علي تمكن هذه الفضيلة , فضيلة الكرم, وبذل المال في نفس الشاعر ليس هذا فحسب وإنما أراد حاتم تقرير هذه الفضيلة في نفوس السامعين , كما تقررت وكما أحسها , وهي متمكنة في ضميره وقلبه .

من حيث الموسيقا الشعرية :

لا تتحقق الموسيقا الخارجية في الوزن والقافية فحسب، بل لابد وأن نضع في الاعتبار التركيب اللغوي المترابط معهما، وذلك لأنه ،" لا يمكن أن يصدر وزن بدون أن يكون في ألفاظ تتوالي فيها الحركات ، والسكنات علي نحو يظهر هذا الوزن ويحدد بحره " [1] كما أن القافية والإيقاع المنغم ليسا كل شيء ، فلا بد من التركيب اللغوي المترابط معهما تماماً , لأن الإيقاع لا يأتي من مجرد نغم صرف منفصل ،فتقسيمات الألفاظ، ودلالاتها الإيقاعية المرتبطة بالمعني ونحوه , وطرق التعبير الإيحائية والبلاغية , كل هذه العناصر بتداخلها وتآزرها تحقق لنا موسيقا شعرية ذات تأثير واضح , وعميق في نفوسنا ،ولو تأملنا الموسيقي الخارجية في النماذج الشعرية السابقة لوجدنا أن البحور التي نظم عليها شعراء النزعة الذاتية تتمثل في بحر الطويل ،والكامل ،والرمل ،والوافر ، وغيره وأن كلا منها لم يرتبط بفن معين من الفنون الواردة في الشعر الذاتي ، فعلي سبيل

(١) الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشعر الجاهلي د/ صلاح عبد الحافظ ٢/ ٢٩٤، مطبعة دار المعارف.

المثال : بحر الطويل ، تنسب إليه بعض القصائد الاعتذارية الصادرة عن النابغة الذبياني [1]. وتنسب إليه أيضاً رائية حاتم الطائي [2] التي افتخر فيها بفضيلة الكرم ،وكذلك تنسب إليه دالية طرفة بن العبد [3]،وأيضاً رائية عروة بن الورد[4] ،وكذلك الحال بالنسبة لبحر الكامل نسبت إليه لامية عنترة بن شداد[5] «التي أعدها للفخر بنفسه وكذلك بائية طرفة بن العبد[6] وهكذا في بقية البحور الأخري ،لا تجد بحراً مقصوراً علي غرض معين ،وهذا ما أشار إليه صاحب موسيقي الشعر بقوله :" هل اتخذ القدماء لكل موضوع من الموضوعات وزنا خاصاً ، أو بحراً خاصاً من بحور الشعر التي رويت لنا ؟ إن استعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرنا بمثل هذا التخير ،أو الربط بين موضوع الشعر ووزنه ، فهم كانوا يمدحون، ويفاخرون، أو يتغزلون في كل بحور الشعر التي شاعت عندهم " [7]وهذا ما لاحظناه في بعض النماذج الشعرية التي أتينا بها علي سبيل الاستشهاد علي وجود النزعة الذاتية في الشعر الجاهلي .

ومع هذا ، فقد استطاع بعض شعراء النزعة الذاتية أن يخرجوا من هذه البحور أنغاماً موسيقية مختلفة ، ومتنوعة بتنوع عواطفهم ،

(١) أتاني -أبيت اللعن - أنك لمتني ... وتلك التي تستك منها المسامع.
(٢) أما وي قد طال التجنب والهجر ... وقد علرتني في طلابكم العذر
(٣) إذا القوم قالوا من فتي خلت أنني ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
(٤) ذريني أطوف في البلاد لعلني ... أخليك أو أغنيك عن سوء محضر
(٥) إني امرؤ من خير عبس منصبا ... شطري وأحمي سائري بالمنصل
(٦) ما تنظرون بحق وردة فيكم ... صغر البنون ورهط وردة غيب
(٧) موسيقي الشعر د/ إبراهيم أنيس ص ١٧٧ ، مطبعة الأنجلو المصرية.

وأحاسيسهم المبثوثة في مختلف أغراضهم الشعرية التي اتسعت لها بعض البحور ، كما هو واضح في بحر الطويل ، الذي اتسع للفخر ، والعتاب ، والنسيب ، وكذلك بحر الكامل الذي اتسع أيضاً للفخر، والعتاب ، وفي هذا دليل واضح على أن الفارق لا يكمن في الوزن، والقافية فحسب ، وإنما بترابطهما مع التراكيب اللغوية بإيحاءاتها، ودلالاتها الإيقاعية ، وغير ذلك من العناصر الأخري التي نستشفها من وراء السطور ، ونلتمسها في الإيقاع المنبعث من تتابع بعض الألفاظ ، أو العبارات ،أو الحروف في نسق معين ، فيشكل هذا التناسق إيقاعاً داخلياً يمكننا ملاحظته في بعض القصائد الشعرية السابقة ،كقصيدة حاتم الطائي التي افتتحها بقوله : "أماوي " قد طال التجنب والهجر .. فما إن بدأ قصيدته بخطاب صاحبته " ماوية " حتي ألح علي تكرار اسمها خمس مرات - مرة في بداية كل بيت - فأحدث هذا الترجيع المتتابع نغماً موسيقياً مسترسلا ، ابرز لنا عاطفة الشاعر تجاه صاحبته من ناحية ،وتجاه فضيلة الكرم المتأصلة في نفسه من ناحية أخري .

وكما أشعرنا حاتم بهذه الموسيقا الهادئة أشعرنا أيضاً امرؤ القيس من خلال تكراره لكلمة " يوم " الواردة في بعض شعره الغزلي كقوله :ألا رب يوم - ولا سيما يوم - ويوم عقرت - ويوم دخلت - وأيضاً تكراره لحرف السين ثلاث مرات متتالية في البيت الواحد ،،كما هو واضح في قوله : سباك - ألست - السمار ، وكذلك توالي بعض العبارات الواردة في شعر عنترة كقوله : المال مالكم ، والعبد عبدكم ، وغير ذلك من

الألفاظ والعبارات التي أشعرنا مجيئها في نسق خاص بإيقاعها الداخلي المنبعث من تكرارها وتتابعها .

كما يتحقق الإيقاع الداخلي أيضاً باستخدام الضمائر المكررة بطريقة خاصة ، مثل الضمائر المتصلة بهذه الألفاظ الواردة في شعر النابغة الذبياني كقوله : أتاني - إنك - لمستني - لعمري ، وغير ذلك من الألفاظ التي جاء فيها ضمير المتكلم ، والمخاطب يشكلان إيقاعاً واضحاً، ومميزاً في أبيات الاعتذار السابقة .

بالإضافة إلي هذا ، فقد تضمنت النماذج السابقة بعض المحسنات اللفظية،كالطباق الوارد في شعر طرفة بن العبد بين كلمتي: طريفي، وتالدي، وأيضاً في شعر الشنفري : شره، دون خيره ، يروح، ويغدو ، وكذلك في شعر عدي بن زيد : أعلن ،وأسر ،إلي غير ذلك من الأمثلة التي جاء الطباق فيها يؤكد المعني ،ويزيده وضوحاً ، ولا يخفي علينا ما بين كل لفظين من هذه الألفاظ من تناسب في الصيغة،أو توافقاً موسيقياً ملحوظاً .

وكذلك من المحسنات اللفظية الواردة في الشعر الذاتي "الجناس" وذلك كقول الأعلم الهذلي وتجر مجرية ... إلي أجر ، وأيضاً حسن التقسيم الذي نلتمسه في شعر الشنفري حين يقول : وإني كفاني ثلاثة : أصحاب " فؤاد مشبع ، وأبيض أصليت ، وصفراء عيطل " إلي غير ذلك من المحسنات اللفظية التي تشعر بموسيقاها الخفيفة الوقع في السمع ، والتي تجد طريقها بسهولة ويسر إلي أعماق النفس.

وبهذا ، فإذا كانت الموسيقي الخارجية تلعب دوراً هاماً في إظهار ما

يريد الشاعر إظهاره من أفكار ومشاعر،فإن حسه الموسيقي،ومهارته في التوقيع ،والتنغيم يكون أكثر ظهوراً فيما يسمي بالموسيقي الداخلية للشعر.

من حيث الخيال والتصوير الفني:

والمتأمل في النماذج الشعرية السابقة ، يجد أن الشعر يقوم جانب الخيال فيه علي الصورة التي استمد شعراء النزعة الذاتية عناصرها من واقع بيئتهم، كل علي حسب حالته، وموقفه، وقدرة خياله، وطريقته الخاصة في التعبير عن مشاعره الذاتية ، ونزعاته النفسية ، وعاطفته التي لها دور واضح في خلق الصورة الشعرية وإبراز عناصرها .

وتبدو لنا " صور الخيال في النص الأدبي في التشبيه،والمجاز والاستعارة والكناية، وحسن التعليل، وما شابه ذلك" (١) ويعد التشبيه من أكثر الألوان البيانية انتشاراً في الشعر الجاهلي , وهذه سمة من السمات المألوفة في كلام العرب , ولقد أشار إلي هذا صاحب الكامل بقوله : " والتشبيه جار كثيراً في كلام العرب حتي لو قال قائل : هذا أكثر كلامهم لم يبعد "(٢) .

ولو طبقنا هذا علي ما بين أيدينا من الشعر الذاتي ،لوجدنا امرأ القيس يلتقط أركان تشبيهه من واقع بيئته ، وذلك في قوله : سموت إليها ... سمو حباب الماء ...، وكأن سموه إليها يشابه في هيئته وصورته سمو حباب الماء , وهو يعلو بعضه بعضاً في رفق وتمهل .

(١) أصول النقد الأدبي. د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ص٣٤، مطبعة البابي الحلبي.
(٢) الكامل في اللغة والأدب للإمام المبرد، تحقيق أحمد محمد شاكر ٣/ ٨١٧، مطبعة البابي الحلبي.

وكذلك الحال بالنسبة لعنترة بن شداد الذي لم ينسه وطيس القتال محاسن محبوبته " عبلة " فراح يخاطبها بقوله " فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم " فلمعان السيوف وبريقها يماثل بريق ثغر محبوبته أثناء تبسمها ،وفي هذه الصورة وغيرها تأتي صورة عنترة متفاعلة ومتداخلة الملامح ،لأنه يمزج صورة الغزل بصور معارك ومشاهده القتالية ،وكأنه يقدم فروسيته الحقيقية مهرا لابنه عمه " عبلة " التي كثيراً ما دعاها للتعرف علي بطولته ، وبسالته في ساحة القتال ممن يطمئن إلي شهاداتهم من أبطال الحرب ،وفرسانها الذين يشاهدون كره وفره ونتائج معاركه وحروبه .

كما جاء التشبيه أيضاً في شعر طرفة بن العبد أثناء حديثه عن ندمائه : " نداماي بيض كالنجوم " أي مثلهم كمثل النجوم في سموهم ، وبياضهم، وتلألئ وجوههم ، وكذلك أثناء نظرته الخاصة إلي نفسه بعد أن تحاماه العشيرة كلها ، وأفرد من بين أفراد القبيلة " إفراد البعير المعبد " .

أما الاستعارة , فقد وردت في ثنايا غزل الحادرة بمحبوبته "سمية" وذلك في قوله : " وإذا تنازعك الحديث ... " فمنازعة الحديث تعبير بليغ يشعرنا ببراعة الشاعر ، وقدرة خياله التي جعلت الحديث الذي دار بينهما يشبه البرود المطرفة التي انتشرت بزيتها ومطارفها ،فراح كل واحد منهما يأخذ بطرف منه يتجاذبان ويتنازعان ،وهذا اللون يسميه أصحاب البيان بالاستعارة المكنية .

وكذلك من الصور التي جاءت عن طريق الاستعارة في الشعر الذاتي

قول النابغة الذبياني :

"أتيت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار علي زار من الأسد" فقد شبه الشاعر وعيد النعمان بزئير هذا الحيوان المفترس الذي تقشعر من صوته الأبدان، وفي هذا إيحاء بحالة الشاعر النفسية ، وهيئته ، وشدة خوفه ، وفزعه من وعيد النعمان وتهديده .

ومن صور الخيال الواردة أيضاً بالشعر الذاتي الكناية , وذلك في قول عنترة بن شداد : " وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ... " فهذه كناية عن شدة القتال ،وكذلك في قول الشنفري الأزدي : " ولست بمحيار الظلام ... " كناية عن علمه ودرايته بالصحراء، ودروبها في ظلام الليل الدامس، وأيضاً في قول طرفة بن العبد : " ولست بحلال التلاع ... " كناية عن شجاعته وبسالته التي تحول بينه ،وبين التخفي في مجاري الماء التي تستر من نزل فيها ، إلي غير ذلك من الأساليب البيانية التي يمكن ملاحظتها في نماذج الشعر الذاتي السابقة .

كما لجأ بعض شعراء النزعة الذاتية إلي التشخيص، والتجسيد الذي يزيد الصورة وضوحاً ودقة ،وذلك كما فعل حاتم الطائي في تلك الصورة التي رسمها لماله ،وقد أهين حين سلطت عليه يداه ، وكذلك تجسيده لما لبسه قومه من صروف الدهر وتقلباته .

ومن شعراء النزعة الذاتية من ركز عدسته التصويرية علي ذاته ، وذلك أثناء فخره ببعض الصفات الملائمة لشخصيته , وطبيعة حياته ،كسرعة العدو الواردة في شعر تأبط شرا : " لا شيء أسرع مني ... " وهنا

تبرز لنا ضخامة الصورة من خلال عنصر الحركة المتمثل في شدة عدوه التي سبق بها الخيول, وجارح الجبل الذي هو أسرع طيراننا من جارح السهل ، ثم نجد بعضهم ينطلق بصورته إلي مشهد أكثر رحابة واتساعاً، وذلك عندما يطلع علينا بتلك المرقبة التي كان يترصد فيها ضحاياه، كما هو واضح في قول أبي خراش : "لست لمرة إن لم أوف مرقبة ... " فهي مرقبة كما صورها في مكان عال بحكم موقعها في قمة الجبل ناتئة تبدو كحد الفأس ، خالية من كل شيء إلا من بقايا ذلك العريش الخشبي الذي أشبه حطامه حطام عالم الصعلوك نفسه، بالإضافة إلي هذا , فبالنماذج السابقة العديد من الصور الشعرية التي جاءت جزئياتها في تآلفها ، وترابطها تبرز لنا الصورة الكلية التي أظهرت قدرتهم التصويرية الفائقة في تحويل ما ليس موضوعا للتأمل إلي موضوع له ، والأحداث العابرة إلي صورة معبرة عن قضاياهم , وتجاربهم , ومعاناتهم التي تناغمت مع حالتهم النفسية .

نستنتج من هذا ،أنه علي الرغم من اندماج معظم شعراء القبائل مع الذات القبلية،وقناعتهم بتداخل الأنا مع النحن ، ورضاهم بالتعبير عن الأنين معاً ، من أجل الاستجابة لمطالب القبيلة ، وكسب رضاها , فإن ذلك لم يكن حائلاً من وجود التيار الذاتي بجانب التيار القبلي سواء أكان ذلك في مقدمة القصيدة التي عدها بعض الأدباء بمثابة الجانب الذاتي ،أم في بعض القصائد التي صدرت عن بعض الشعراء الذين شغلوا أنفسهم بالتعبير عما يختلج صدورهم من مشاعر , وأحاسيس خاصة بذواتهم .

كما أن الشعر الذاتي لم يأت علي حالة واحدة ، بل تنوع بتنوع أحوال الشعراء ، كل علي حسب ظروفه الخاصة بذاته ، فمنهم من كان مترفا منعما شغل نفسه بالتعبير عن ملذاته، ومغامراته ، ليس هذا فحسب، وإنما تجاهل التقاليد القبلية ، واستهتر بالأعراف ، وتنكر للقيم والأخلاق ، وغير ذلك من السلوكيات التي لمسناها في بعض النماذج الشعرية التي صدرت عن امرئ القيس .

ومنهم من ارتفع صوته الذاتي بسبب حرمانه العاطفي من جهة، وحرمانه من شرف الانتساب إلي أبيه من جهة أخري ، كعنترة بن شداد الذي ظل أسير ثورته ، وصراعه المستمر، من أجل أن يحظي بحريته ، ويحقق آماله التي تهفو إليها نفسه ،فلم يجد أمامه إلا شعره الذاتي الذي أعانه علي إسقاط تجاربه ، وتطهير نفسه من شوائب الحياة القبلية التي ضاق صدره من عنفها وشدتها .

وبعضهم خرج عن دائرة الجماعة بسبب إحساسه بالظلم الذي لحق به وبإخوته ، وكذلك بسبب سوء سلوكه ، وتماديه في شرب الخمر والسفه والتبذير ،فراح يبرز إحساسه المتضخم بذاته ،ويعلو صوته الفردي علي الصوت القبلي، كطرفة بن العبد الذي ركز عدسته التصويرية علي تصوير بطولته المطلقة التي رآها في عالم الخمر والنساء مرة ، وفي تجلده، وبطولته، وبسالته مرة أخري .

كما توهجت النزعة الذاتية في شعر الصعاليك الذين تكون مجتمعهم من الفقراء الذين نبذتهم قبائلهم بسبب الفقر ، ومن الخلعاء الذين تخلت

عنهم قبائلهم ، لسوء سلوكهم ، ومن الأغربة ، أو المهجنين أولاد الإماء السود من آباء عرب ،فقد خرج كل هؤلاء علي حمي قبائلهم ،وانطلقت نزعتهم الذاتية انطلاقاً متحرراً حتي أصبحت تياراً عاماً بينهم ، وهذا ما لاحظناه في بعض أشعارهم التي صدرت عن الشنفري، وتأبط شرا، وأبي خراش ،وغيره من الشعراء الصعاليك الذين جعلوا من أشخاصهم محورا لكل ما يدور حولهم من أحداث ومشاهد ، فلم يعنهم الحدث لذاته ، وإنما يعنيهم ارتباط ذلك الحدث بأشخاصهم، ومن ثم ، فقد وظفوا فنهم للتعبير عن قضاياهم التي غلبوها علي قضايا مجتمعهم من منطلق الرفض والصراع ، كما وظفوه أيضاً للتعبير عن حياتهم وسلوكياتهم ، ومواهبهم، ونفسياتهم ، وغير ذلك من الجوانب التي ارتبطت بذواتهم ارتباطاً مباشراً.

ثم برزت النزعة الذاتية أيضاً في شعر بعض شعراء الممالك العربية ، كالنابغة الذبياني الذي أثار الخوف والرهبة عاطفته، فارتفع صوته الذاتي في معظم قصائده الاعتذارية التي تناغمت معانيها مع حالته النفسية ، وكذلك عدي بن زيد الذي جاءت نزعته الذاتية معبرة عن معاناته من السجن، وآلامه ، ومتاعبه، ونزعاته النفسية تعبيراً ذاتياً يتسم بالصدق والحيوية .

كما ظهرت ذاتية الموضوع ظهوراً واضحاً في شعر حاتم الطائي الذي جعل ذاته محورا دارت حوله فضيلة الكرم التي سيطرت عليه، وتضخمت وتوهجت من خلال حسه الفردي أولاً ،ومن خلال ملاءمتها للواقع القبلي ثانياً .

أما الخصائص الفنية التي استنبطناها من واقع النماذج السابقة، فقد تمثلت في ألفاظهم ،ومعانيهم التي جاءت معبرة عما يختلج في صدورهم من مشاعر وأحاسيس من واقع تجاربهم التي عايشوها في حياتهم ، فبدت لنا أشجانهم ،وأحزانهم ،واعتزازهم بشخصياتهم وتتويج أنفسهم ببعض الشمائل التي تعلي من قدرهم ،وترفع من شأنهم.

كما تنوعت أساليبهم ما بين الأساليب الخبرية التي تنوعت مقاصدها، والأساليب الإنشائية ، كالاستفهام ،والنداء، والأمر ، والشرط ،كما جنح بعضهم إلي استخدام الحكاية معتمداً علي السرد والحوار، فكان لكل هذا وذاك أثر واضح في إشراقة أسلوبهم الذي أضفي علي شعرهم الذاتي نوعاً من التشويق والإمتاع .

ثم تمثل عنصر الموسيقا في أوزانهم الشعرية، وسماحة طبع قوافيهم، مع الألفاظ في رقتها ، والعبارات في تدفقها وانسيابها , وفي بعض المحسنات اللفظية ، وغيرها من مظاهر الموسيقي الخارجية ، والداخلية التي تنوعت إيقاعاتها ،وأنغامها بتنوع عواطفهم ، ومشاعرهم المبثوثة في مختلف أغراضهم الشعرية .

أما خيالهم وتصويرهم الفني فقد اعتمد في أكثر صوره علي التشبيه الذي جاءت معطياته من واقع مفردات بيئتهم ،بعد أن أسقطوا عليها مشاعرهم، وأبرزوا من خلالها أحاسيسهم ، وأبعاد مواقفهم النفسية ، كما تجاوز بعضهم الموقف التشبيهي إلي أنماط أخري من المجاز ، كالاستعارة ، والكناية، وغيرها قصدا إلي تعميق الصورة ،وإبرازها في

شكل واضح ، ومعبر عن معالم البطولة تارة وعن الفخر ببعض الصفات الملائمة لذواتهم تارة أخري .

والحمد لله الذي هدانا لهذا،وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم ...

دكتور

حنفى محمود مصطفى

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

كلية اللغة العربية بجرجا

مصادر البحث ومراجعه

١- الأدب العربي بين الجاهلية وصدر الإسلام د. حسن جاد, د. محمد عبد المنعم خفاجي , المطبعة الفاروقية .

٢- الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام د. زكريا صيام, مطبعة دار العصر .

٣- أدب العرب في عصر الجاهلية د. حسين الحاج حسن، مطبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

٤- الإسلام والشعر د. إخلاص فكري ، طبع مكتبة الآداب .

٥- الأصمعيات للأصمعي تحقيق/ أحمد محمد شاكر ،وعبد السلام هارون , طبع دار المعارف .

٦- الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ، طبع مكتبة الأنجلو المصرية.

٧- أصول النقد الأدبي د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، مطبعة عيسي البابي الحلبي .

٨- الأغاني للأصفهاني شرح الأستاذ/ عبد الله مهنا مطبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

٩- تاريخ الأدب العربي كارول بروكمان ترجمة د/ عبد الحليم النجار طبع دار المعارف .

١٠- تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي د/ شوقي ضيف طبع دار المعارف .

١١- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام د/ شكري فيصل طبع دمشق ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤ م .

١٢- التفسير النفسي للأدب د/ عز الدين هلال مطبعة دار الثقافة بيروت .

١٣- ثقافة الناقد الأدبي د/ محمد النويهي طبع بيروت ١٩٦٩ م .

١٤- حديث الأربعاء د/ طه حسين طبع دار المعارف .

١٥- دلالة الألفاظ د/ إبراهيم أنيس طبع مكتبه الأنجلو القاهرة .

١٦- ديوان امرئ القيس تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم طبع دار المعارف .

١٧- ديوان حاتم الطائي طبع بيروت .

١٨- ديوان الحارث بن حلزة إعداد : طلال حرب مطبعة دار صادر بيروت.

١٩- ديوان الشنفري مطبعة دار صادر بيروت .

٢٠- ديوان طرفة بن العبد تحقيق د: علي الجندي طبع مكتبة الأنجلو بالقاهرة .

٢١- ديوان عبيد بن الأبرص مطبعة دار صادر بيروت .

٢٢- ديوان عدي بن زيد تحقيق : محمد جبار المعيد مطبعة بغداد ١٩٦٥م.

٢٣- ديوان عروة بن الورد مطبعة دار صادر ببيروت .

٢٤- ديوان عمرو بن كلثوم مطبعة دار صادر ببيروت .

٢٥- ديوان عنترة ،طبع بيروت ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦ م .
٢٦- ديوان النابغة الذبياني تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم طبع دار المعارف .
٢٧- الروائع من الأدب العربي د. سيد حنفي وآخرين مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٢٨- شرح أشعار الهذليين لأبي سعيد السكري تحقيق :عبد الستار فراج، ومحمد محمود شاكر مطبعة المدني .
٢٩- شرح ديوان الحماسة للتبريزي طبع بيروت .
٣٠- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري تحقيق/ عبد السلام هارون طبع دار المعارف .
٣١- الشعر الجاهلي مادته الفكرية وطبيعته الفنية د/ محمد أبو الأنوار نشر مكتبة الشباب .
٣٢- شعر الصعاليك منهجه وخصائصه د/ عبد الحليم حنفي مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٣٣- الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق / أحمد محمد شاكر طبع دار المعارف .
٣٤- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د/ يوسف خليف طبع دار المعارف .
٣٥- شعراء النصرانية لويس شيخو نشر مكتبة الآداب .

٣٦- الشنفري شاعر الصعاليك د. عبد الحليم حنفي بدون طبع .
٣٧- عدي بن زيد الشاعر المبتكر للهاشمي مطبعة دار البشائر الإسلامية .
٣٨- العمدة لابن رشيق تحقيق : الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد دار الرشاد الحديثة .
٣٩- في الأدب الجاهلي دراسة ونقد د. علي صبح الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م .
٤٠- في علم النفس د. حامد عبد القادر المطبعة المصرية .
٤١- في النقد الأدبي د. شوقي ضيف طبع دار المعارف .
٤٢- القاموس المحيط للفيروز آبادي .
٤٣- قراءات في الأدب القديم د/ محمد أبو موسى مطبعة دار الفكر العربي .
٤٤- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث د/ محمد زكي العشماوي مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٤٥- قيم جديدة للأدب العربي د/ بنت الشاطئ طبع دار المعرفة .
٤٦- الكامل في اللغة والأدب للإمام المبرد مطبعة عيسى البابي الحلبي
٤٧- لسان العرب لابن منظور طبع دار المعارف .
٤٨- مجمع الأمثال للميداني تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة دار الجيل ببيروت .

٤٩- مختارات شعراء العرب لابن الشجري تحقيق د/ نعمان أمين مطبعة دار التوفيق .

٥٠- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد علي طبع بيروت.

٥١- المفضليات للمفضل الضبي شرح ابن الأنباري نشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة .

٥٢- مقدمة ابن خلدون لابن خلدون تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي مطبعة نهضة مصر .

٥٣- مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي د/ حسين عطوان طبع دار المعارف .

٥٤- من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي د. سعد ظلام طبع مؤسسة يوم المستشفيات .

٥٥- موسوعة الشعر العربي د. مطاوع صفدي ،وإيليا حاوي طبع بيروت.

٥٦- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني تحقيق/ محمدأبو الفضل إبراهيم وعلي البيجاوي مطبعة عيسي البابي الحلبي.

***